

خالد عودة الله

سِجَّة سَيِّ يَامَنَة

سيرة فلسطينية لحربة الإمبريالية



كتاب الجنوب

Almiz Arif
المميز عارف
25

سِنْجَة سِتِّي يَامَنَة: سيرة فلسطينية لحربة الإمبريالية
كتاب الجنوب: المجلة الفلسطينية للدراسات التحررية (2)

سِنْجَة سِتِّي يَامَنَة:
سيرة فلسطينية لحربة الإمبريالية، خالد عودة الله

**Sinja of Sitti Yaminah:
A Palestinian Biography of The Bayonet
of Imperialism, Khaled Odetallah**

دائرة سليمان الحلبي
للدراستات الاستعمارية والتحرر المعرفي
القدس، فلسطين (الطبعة الأولى، 2025)
تصميم الغلاف: محمد خيران
لوحة الغلاف: العزيز عاطف
التدقيق اللغوي: قَسَم الحاج وريتا أبو غوش
جميع الحقوق محفوظة ©

خالد عودة الله

سِنْجَة سِتِّي يَامَنَة: سيرة فلسطينية لحربة الإمبريالية



دائرة سليمان الحلبي
للدراستات الاستعمارية والتحرر المعرفي
القدس، فلسطين

المحتوى

11

1. مقدمة

17

2. شرق وغرب: من الحرب اليابانية (أريساكا-30) إلى الحرب البريطانية (1907)

23

2.1 معركة "بورت آرثر": من 8 شباط إلى 23 كانون الأول-1904 الاستسلام الروسي

25

2.2 استدراك أول: من "بورت آرثر" إلى الجليل

26

2.3 استدراك ثانٍ: "لا تستطيع محاربة الدبابات بالحرب"

27

3. الحرب سلاحاً للاهوت الذبح المتحضر

30

3.1 استدراك: لاهوت الذبح المتحضر في عصر "الدرون"

31

4. هرطقات إمبريالية: تحرير القدس بأسنة الخراب في الحرب العظمى!

34

4.1 هستيريا الرجولة الإمبريالية

43

4.2 معركة بئر السبع 31 تشرين الأول 1917:

جِراب الإمبريالية المتوهجة تحت شمس فلسطين

49

5. أوّل الدم: مجزرة صرفند الخراب 1918

55

5.1 المقبرة كمنهجية في كتابة تاريخ المجزرة

58

5.2 القرية: صرفند الخراب التاريخ والموقع

59

5.3 "البوبرية" وبير الغارب

64

5.4 الحرب العالمية الأولى في فلسطين: العمليات العسكرية في قطاع

صرفند حتى هدنة مودروس الموقعة في 30 أكتوبر 1918

5.5. الليلة الليلية: وقائع المجزرة

- 69 5.5.1 مجزرة صرفند الخراب 1918 في التاريخ والوعي الصرفندي
- 79 5.5.2 مجزرة صرفند الخراب 1918 في التاريخ والوعي الأنجلو-صهيوني
- 86 5.6 إعادة إعمار القرية
- 90 5.7 مجزرة صرفند الخراب صهيونياً
- 95 5.8 صرفند الخراب المحاصرة
- 102 5.9 أبراهام بلومفيلد: أبو يونس
- 105 5.10 استدراك: خيط الدم من صرفند الخراب إلى كفر قاسم

6. نفط وحراب في ليل الجليل الطويل

- 106 6.1 " الماسورة"
- 114 6.2 أورد ونغيت ودرس يهُوشواع بن نون
- 119 6.3 لماذا الحربة طراز 1907؟
- 126 6.4 استدراك: الطريق إلى عين حارود
- 127 7. بمثابة خاتمة لسيرة تأبى الختام

129 الإحالات

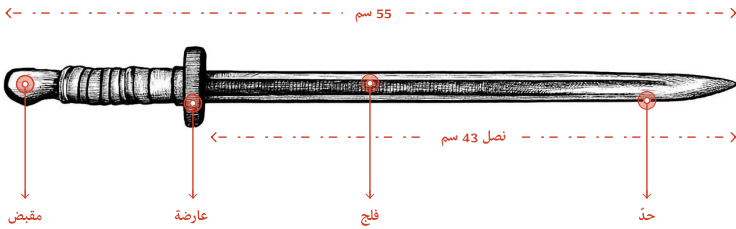
146 المرجعية

ملخص

هذه سيرة تاريخية فلسطينية الهوى لسنجة سَيَّ يامنة (حربة بريطانية من الحرب العالمية الأولى- طراز 1907) كانت "سَيَّ يامنة" قد اغتنمتها من أحد مواقع معارك الحرب العظمى في قريتنا بيت حنينا-القدس، لتصير بيدها سلاحاً وأداة تستخدمها في حياتها اليومية، أقصَّ فيها التاريخ العسكري والثقافي للحربة بصفتها رمزاً للإمبريالية البريطانية. بدأت بكتابة هذه السيرة من الحرب الروسية اليابانية (1904-1905) التي طُورت الحربة البريطانية (من طراز 1907) نتيجة لدروسها العسكرية والاستشراقية مستنسخة حربة أريساكا اليابانية، وتتبعُ نشوء وتطور المعاني الأيديولوجية للحربة في الثقافة الإمبريالية وفي الحروب الاستعمارية. ومن ثمَّ حملتُ ما جمعتُ من شتات هذا التاريخ الكوني للحربة وعدتُ به إلى فلسطين، إلى الحجر الأمومي الريفي الذي تفتَّح وعيي فيه وبه لمعرفة نظام الأشياء، أساجل هذه الكونية تأويلاً ونقداً في ثلاث حالات دراسية/ لحظات دموية، هي: سيرة الحربة في معارك الخيالة الكبرى على أرض فلسطين في الحرب العظمى وما حملته الحربة من ترميز خاص في هذه الحرب بصفتها حرباً إمبريالية "مقدسة وفروسية"؛ والحربة سلاحاً للاهوت الذبح الإمبريالي في نشوء نموذج/ فكرة المجزرة الأنجلو-صهيونية في بلادنا فلسطين في دراسة مفصلة لمجزرة صرفند الخراب (10-12-1918)؛ وأيديولوجيا الحربة (من طراز 1907) في إرهاب فرق الليل الأنجلو-صهيونية الخاصة التي أسسها وينغيت (1938) لقمع الثورة الفلسطينية الفلاحية الكبرى في لحظة تقاطعها مع السيرة الدموية المديدة للنفط العربي (النفط-المجزرة)، هذه الفرق التي شكَّلت النواة الأولى للجيش الصهيوني وطبعته بطابع المجزرة المستمرة.

سِنْجَة سِتِّي يَامَنَة: سيرة فلسطينية لحربة الإمبريالية

إلى سِتِّي يَامَنَة...



مرئية رقم (1): سنجة ستي يامنة (حربة بريطانية من طراز 1907 - الحرب العالمية الأولى)، تصوير المؤلف، 2025

مقدمة

هذه سِنجة سَيِّي يامنة رحمها الله (جدتي لأمي)، وتعود للحرب العالمية الأولى في فلسطين، رحلت سَيِّي يامنة عن عالمنا قبل ولادتي بعشرين سنة ولم تترك وراءها صورة. عشت ليالي على سيرتها في حجر أمي فاطمة، قدس الله سرّها، أصغر بناتها ورفيقة دربها، وأقرب أبنائها وبناتها الثمانية إلى هيئتها وشخصيّتها، كما اتَّفقت روايات أبنائها وبناتها الذين رحلوا جميعهم عن عالمنا، أحاول أن أركّب صورتها بقوة الخيال والشوق من حكايات أمي عنها ومن أثرها الوحيد الباقي، من سِنجتها المحفوظة في حرز أمي.



مرثية رقم (2): دار سَيِّي يامنة على الجبل، تصوير المؤلف، 2025

كانت سَيِّي يامنة "رَجَالِيَّة" "حَقَّانِيَّة": لا تخاف أحداً ولا تهاب كبيراً ولا صغيراً، تدافع عن حدود أرضها حاملة سِنجتها في صراعها مع كبار القرية (ولا كبير إلا الله) عند وضع حدود الأراضي في الطابو، ولا تنام قبل أن تطوف مساءً على بيوت بناتها المتزوجات لتطمئن بأن كل واحدة مغلقة بابها عليها وعلى عيالها، ومن ثمَّ تصعد إلى "زيتونات يونس" على مشارف القرية تنتظر بكرها (خالي محمد) على "ضو القداحة" خوفاً عليه من الضباع، وهو الذي كان من عادته أن يصل القرية متأخراً بعد حلول الظلام من عمله في القدس. وفي سيرتها، سألتقي للمرة الأولى بما سوف أعرفه من قراءتي لاحقاً باسم "فصائل السلام"؛ في ثورة الـ 1936، عندما أغاروا على قريتنا بيت حنينا للترهيب والتخريب في إحدى ليالي الثورة الفلسطينية الكبرى، فصاح أحد الجيران طلباً للنجدة، فخرجت لهم سَيِّي يامنة وتعرّفت على رئيس العصابة "الهامل"، ورجمته بالحجارة.

في موسم البذار، كانت سَيِّي يامنة تبذر القمح حتى في عين الخُرَّامة (أي كانت تستغل كل رقعة من التراب، حتى قليله الموجود في ثقبو الصخور) في أرضها في "راس الطويل"، شرقي القرية، ما كان يعرف في المعجم الزراعي للقرية بـ "الْقُطْم الشرقي" (إذ قُسِّمت أراضي القرية، زراعياً، إلى قُطْم شرقي وقُطْم غربي تناوبت زراعة الأرض بينهما كل سنة)، حيث تجثم الآن مستعمرة "بسغات زئيف" عليها. وعندما رحلت سَيِّي قال أهل القرية: "مات الضابط"، وبعد رحيلها قال جدي عبد القادر، بعدما اقترح عليه أقرباؤه الزواج ثانية: "تَحْرُمُ عَلَيَّ النِّسْوان مِنْ بَعْدِكَ يا يامنة"، وبقي وفيّاً لها ولذكرها حتى وافته المنية بعدها بثلاثين سنة.

لا أدري على وجه التحديد كيف اغتنمت سَيِّي يامنة السنجة البريطانية! هل وجدتتها في أرضها في "راس الطويل"، حيث دارت معركة "راس الطويل" في الحرب العالمية الأولى في محاولة الجيش العثماني اليائسة الأخيرة في 24 كانون الأول 1917 لاستعادة القدس من يد الإنجليز؟ أم في الجبل، حيث تقع دارها، والذي شهد هو الآخر معارك طاحنة ضمن معارك شمال غرب القدس في الحرب العظمى، ما بين 21 تشرين الثاني

وحتى 24 كانون الأول 1917، أم وجدتها وهي تجول في أراضي قريتنا للتخطيط وقلع النَّبَش في موقع آخر من مواقع المعارك المنتشرة بكثرة في أرض قريتنا!

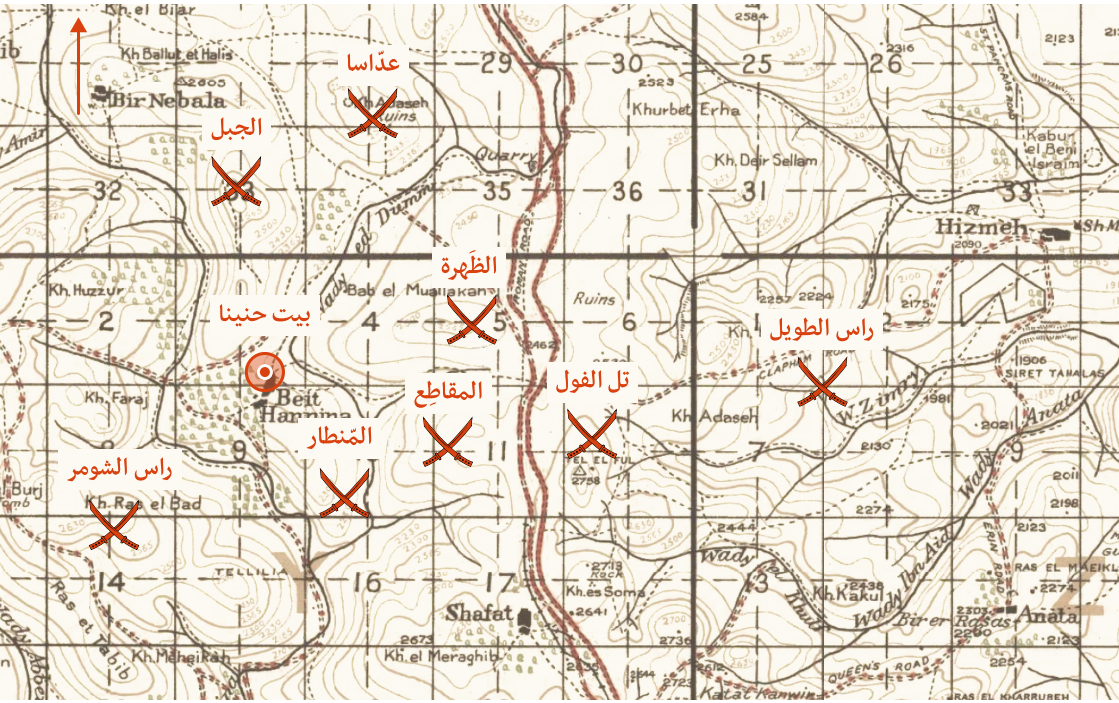
كبرت والسَّجْنة في مركز عالمي الذي كانت تتسع دائرته بالقراءة والتجوال... وقبل ست سنين أصابني حُمى قصَّ أثر معارك الحرب العالمية الأولى في فلسطين لتصير الدائرة أوسع وأعمق، حيث تتبَّعتها من حدود سيناء جنوباً حتى جسر بنات يعقوب على تخوم الجولان السوري المحتلَّ شمالاً، وجمعتُ العشرات من بقايا المعارك، وصرت خبيراً في تشخيصها، والسَّجْنة باقية على حالها أداة للخيال والحنين... استمر ذلك إلى أن هتف بي هاتف قبل ثلاث سنين أن أتملَّي السَّجْنة بعين المؤرخ العسكري بما حصلتُ عليه من معرفة موسوعية بأسلحة الحرب العظمى وفنون تشخيصها. تفحصتُ السَّجْنة، فلم أجد دمغاً عليها كالعادة يهديني إلى فكِّ طلاسمها، ما زاد فضولي... فقرأت كل ما أستطيع الوصول إليه حول الحِراب وتاريخها إلى أن تمكَّنتُ من تشخيصها، وإذا هي حربة بندقية بريطانية من طراز (Pattern bayonet 1907) كما أُطلق عليها اسم "الحربة السيف" (Sword Bayonet) لطولها المفرط البالغ 55 سم، وهي معدة للتثبيت على بندقية "لي انفيلد" المحسَّنة القصيرة (Short Magazine Lee-Enfield rifle MK1-SMLE). اعتمد البريطانيون في تصميم هذه الحربة على تصميم الحربة اليابانية "أريساكا"- طراز 30 (سنوات الخدمة 1897-1945) كما سيأتي تفصيله تالياً، وبدأ العمل على التصميم في العام 1907، ومن هنا جاء اسمها، ودخلت مرحلة التصنيع في العام 1908 وبقيت مستخدمة حتى العام 1945. وقد جاءت السَّجْنة بفلجين (والفلج تجويف طولي في النصل) لتوجيه الدم المتدفق خارج الجسد المطعون لزيادة كثافة الزيف ولتخفيف وزن الحربة التي تزن 468 غم.¹

بعد أن قمت بفحص دقيق لسجّنة سيّي يامنة، ومع أن دمغة المصنع التي تحمل اسم الشركة المصنّعة وتاريخ الصنع قد تأكلت بسبب الاستخدام المكثّف وعامل الزمن، أمكنني تحديد تاريخ صناعتها ما بين العامين 1914 - 1915 بالاستناد إلى القرائن التالية: غياب ثقب التنظيف على مقبضها والذي تمَّ استحداثه في الطراز ذاته في العام

1916؛ وأن الحراب المصنَّعة من الطراز ذاته كانت ذات عارضة معقوفة حتى العام 1913، حيث تمَّ تعديل عارضتها لتصبح مستقيمة بعد أن أثبتت التجربة القتالية البريطانية عدم عملية عارضتها المعقوفة في النسخة الأولى من الحرب.

يا إلهي! جلثُ البلاد طولاً وعرضاً بحثاً عن آثار الحرب العالمية الأولى "وأجمل" وأكمل آثارها جاثمة أمامي منذ عشرات السنين... أيُّ سجلٍ دم يحفظه معدنها؟ وأيُّ أرواح كانت السَّجَّة آخر عهدها بهذا العالم؟ وكيف صارت أداة الموت الإمبريالي هذه سلاحاً في يد سَيِّ يامنة تدافع بها عن حدود أرضها؟ وأيُّ قوة منحتها فوق قوتها؟ وأيُّ أثر كان لها على أي فاطمة وهي ترقب أمها شاهرة سنجتها؟ تقول إحدى نظريات الوعي التي أحب إن كل ما في هذا العالم من كائنات سواء كانت من الأحياء أو الجمادات ما هي إلا تكثيف للوعي الكوني اتخذ شكلاً ما. هل وصلتُ إلى التاريخ العسكري البوعي الذاتي أم بتأثير كامن فيَّ من وعي السَّجَّة في علاقتي الممتدة بها؟ وهل كانت كل هذه الرحلة المعرفية ضرورية لأعود يوماً لتروي السَّجَّة سيرتها من خلالي؟ أيُّ قوة كامنة في السَّجَّة التي فتحت مساراً في حياة طفل في حجر امرأة ريفية وصل أقاصي المعمورة لكي يجمع شتات وعي مبثوث عالمياً ليعيده إلى ذات الحجر في معرفة الأشياء لتكشف عن بعض حقيقتها؟ وهل أكتب الآن تاريخ السَّجَّة أم أنها طريقة سَيِّ يامنة في إعلان حضورها المتجدد وقد ذابت في التراب ولم تترك وراءها أثراً غيرها، فبثَّت في الفضول ونهم المعرفة لأعطي كل هذه المعاني لسنجتها المنسية، ولتحضر هي في كل تفاصيل العالم والأشياء والتواريخ واقفة على شرفة بيتها في الجبل تُطلُّ على تاريخ العالم بأفكاره وإمبراطورياته العابرة في دروب قريتنا نحو مركز الوعي الكوني بذاته، القدس؟

يا إلهي ماذا عليَّ أن أغلق من نوافذ الوعي والإحساس لكي استمر بكتابة هذه السيرة ولا أبقى عالقاً في هذه المقدمة إلى الأبد...؟



مرئية رقم (3): مواقع معارك الحرب العالمية الأولى في قرية بيت حنينا حدّدها الباحث على خريطة المسح الميداني لفيلق المهندسين الملكيين في الجيش البريطاني (1917-1919)، المكتبة الوطنية الأسترالية، 1919.



مرثية رقم (4): مشاركة الباحث في حفرة لقبر جماعي للجنود العثمانيين

في الحرب العظمى اكتشفه بالصدفة راى أغنام في العام 2022

في منطقة الجبل-بيت حنينا، تصوير مهدي نبوخ، 2022.

شرق وغرب: من الحرب اليابانية (أريساكا-30) إلى الحرب البريطانية (1907)

تبدأ سيرة حربة سَيَّ يامنة من الحرب الروسية اليابانية (1904-1905)،² والتي انتهت بانتصار اليابان على روسيا، أول انتصار في العصر الحديث لقوة آسيوية على قوة أوروبية. كانت لهذه الحرب تأثيرات بعيدة المدى على العالم الحديث، ويمكن القول إنها أطلقت عملية تاريخية نتجت عنها الحرب العالمية الأولى ومن ثم الثانية بالمنطق التاريخي. وهنا تجب الإشارة إلى أن هذه الحرب جرى تهميشها في كتابة التاريخ الحديث من قبل المركزية الأوروبية، وإن جرت مساعٍ لتدارك هذا التهميش بحثياً في السنوات العشرين الماضية. وقد كانت هزيمة روسيا القيصرية في الحرب أحد العوامل الرئيسية في تصاعد الغضب الشعبي، الذي تجمعت روافده ووصلت إلى ذروتها في ثورة تشرين الأول/أكتوبر البلشفية 1917، هذه الحرب التي جرى تصويرها في الصحافة الغربية للرأي العام بصفتها حرب داوود الياباني ضد جالوت الروسي،³ وهي ذات المماثلة التي استخدمها الصهاينة في بناء أسطورة انتصارهم في حرب نكبة 1948 وصدروها للعالم.

وأما في التاريخ الجنوبي للحرب، فلم تنل هذه الحرب، إلى يومنا هذا، الموقع المستحق في الوعي التاريخي التحرري، بالنظر إلى تأثيرها المعنوي بعيد المدى على دول الجنوب في القارات الثلاث في تشكُّل الهوية الشرقية الجامعة المضادة للهيمنة الغربية، وفي نشوء الفكر العالمي التحرري من الاستعمار الغربي في مصر والهند وإندونيسيا وأفريقيا وإيران وتركيا، وخاصةً بما أدَّت إليه من سلسلة الثورات الدستورية التي تلت الحرب. يقول الزعيم الوطني المصري مصطفى كامل (1874-1908) في كتابه الشمس المشرقة: "... وأن لا بدَّ لها من الاستسلام للغرب وقبول حكمه وسلطانه بلا عمل للحاضر وبلا جهاد في سبيل المستقبل. فقامت أمة اليابان مكذبة هذه الدعاوى منادية الشرقيين أجمعين بأن طريق الارتقاء مُيسَّر لقاصده... تسأل الناس بدھشة وتعجب من هذا الشعب الذي خرج من القبور ليزعج الأحياء بأصوات مدافعه وحركات جنوده في البحر والبر."⁴

لقد كانت هذه الحرب نصراً معنوياً جنوبياً كبيراً حفّز الشرق لاستعادة ثقته بذاته في الصراع مع الغرب الاستعماري الحدائي وتحديّ مقولات التخلف والتقدم، وكانت دليلاً على أن الانتصار العسكري على الغرب، وليس فقط معرفة الحقوق القانونية والأفكار الحديثة، هو الطريق إلى تحقيق العدالة والاعتراف بالحقوق في النظام الدولي في بداية القرن العشرين. كما كان للانتصار الياباني تأثير قوي على إحياء فكرة الجامعة الإسلامية،⁵ ونشوء النموذج الياباني في التحديث كنموذج نهضوي تحديثي. هذا النموذج الذي استقرت صورته في الثقافة العربية باختزاله في إصلاحات "الميجي" دون إعطاء دور البعد العسكري في الصعود الياباني حقّه، أي الحرب طريقاً للنهضة، وما أدّاه هذا الاختزال، من جملة أسباب، إلى دخول الثقافة العربية النقدية في المتاهات اللانهائية للنقد الثقافي للهزيمة. أما قسمة فلسطين ونصيبها من الحرب الروسية اليابانية، فقد أوصلت دروب التاريخ إليها أسوأ تأثيراتها: الاستيطان الصهيوني المحارب...

وأما بكون هذه الحرب فصلاً في سيرة سِنجة سَيّ يامنة، فاليكّم بيانه: كانت الحرب الروسية اليابانية (1904-1905) أولى الحروب التكنولوجية الحديثة التي استُخدم في ميادينها آخر ما توصلت إليه التكنولوجيا العسكرية حينها من قبل الطرفين، مثل البندقية آلية التلقيم والرشاشات الآلية والمدفعية والألغام البحرية الاستشعارية... وغيرها. ولهذا، جرت عملية مراقبة ومتابعة حثيثة ليوميات هذه الحرب من قبل الخبراء العسكريين الأوروبيين والأمريكيين، وبشكل خاص البريطانيين القلقين على مستقبل الإمبراطورية وتحديات هيمنتها المستجدة. وقد تحوّلت الحرب إلى اهتمام دراسي وبحثي، خاصة فيما يتعلّق بمراقبة دور التكنولوجيا العسكرية الحديثة وأثرها في الحروب. ومع أن الجيش الياباني، الذي خرج منتصراً في الحرب، كان مجهّزاً بأخر ما توصلت إليه التكنولوجيا العسكرية آنذاك، إلا أن تكتيك الهجمات الانقضاضية لسلاح المشاة الياباني بحراب "أريساكا" (من طراز 30 وبطول 51 سم) والتي تشبه السيف وتكون مثبتة على بندقية "أريساكا" اليابانية من طراز 30،⁶ قد حظي باهتمام خاص في المراقبة والبحث، وذلك في معرض التساؤل عن مستقبل دور جنود المشاة في الحروب التكنولوجية الحديثة.



مرئية رقم (5): الحرب اليابانية أريساكا طراز -30سنوات الخدمة 1897-1945، متحف الحرب الامبراطوري، 1914.⁷

لم يكن تطوير حربـة "أريساكا"، نسبة للكولونيل "أريساكا نارياكي" الذي أشرف على تصميمها، بعيداً عن جدلية الشرق والغرب، بل جاء ضمن تحديثات اليابان لبنيتها العسكرية في مواجهة الخطر الإمبريالي الغربي المتعاضم. وضمن هذا المسعى التحديثي، تبنت اليابان البندقية والحربة من الجيوش الأوروبية دون أن تغفل دمج قيمها الثقافية والروحية "الشرقية" في هذه التحديثات، فتشكل الجيش الإمبراطوري الياباني بهوية عسكرية هجينة تجمع الحداثة والأصالة؛ هذه الثنائية المزمنة التي أنتجها صعود الغرب كقوة استعمارية تكنولوجية حداثية في المجتمعات الشرقية. في المحصلة، ولدت حربـة "أريساكا" في هذا السياق التحديثي الواسع لثورة "الميجي" التحديثية (1868-1912)، فجاء تصميمها متأثراً بتصميم سيف الساموراي (كاتانا)، الرمز التاريخي للمحارب الياباني الجامع للاحترافية وشرف القتال حتى الموت. كما كانت "عقيدة الحربـة" اليابانية المحملة بالموروث الثقافي لمحارب الساموراي تكتيكاً تحديثياً ضمن مسعى سلطة "ميجي" في مشروعها التحديثي للجيش الياباني القائم على تفكيك هيمنة طبقة الساموراي الموروثة من النظام السابق وتحويل المحارب الياباني من الساموراي إلى الجندي الحديث.⁸ وما زالت حربـة "أريساكا -30" حاضرة بقوة إلى يومنا هذا في الثقافة اليابانية، خاصة في فن الأنيمي الياباني.

GOLDEN

KAMUY

野田サトル

1

مرثية رقم (6): الحربة "أريساكا - 30" في المانغا والأنيمي الياباني الشهير

"غولدين كاموي" الذي تدور أحداثه في الحرب الروسية - اليابانية، ويكيبيديا، 2014. ٩

لقد أوصل الدور الذي لعبته الهجمات الانقضاضية بالحرب سلاح المشاة الياباني في تحقيق النصر (وتحديداً في معركة "بورت آرثر - منشوريا"، التي تحوّلت إلى أسطورة قومية يابانية) المراقبين العسكريين الإنجليز إلى القناعة بأن الحرب لم تفقد أهميتها في الحرب الحديثة، فقام الإنجليز بنسخ النموذج الياباني للحربة القتالية "أريساكا-30" التي تتخذ شكل السيف، وصمّموا الحربة البريطانية (من طراز 1907-سنجة سّي يامنة) بناءً عليه. تجاوز الاهتمام البريطاني بالحرب اليابانية الاهتمام الكلاسيكي للخبراء العسكريين، المتمثّل بدراسة المواجهات العسكرية لأخذ الدروس والعبر، والمحمول على دوافع إمبريالية تتعلّق بالحاجة إلى رفع كفاءة جنود الإمبراطورية قليلي العدد للقمع والسيطرة على شعوب المستعمرات ومواجهة خصومها الإمبرياليين، روسيا وفرنسا، إلى تنبّه وإعجاب المراقبين العسكريين الإنجليز بدور الثقافة اليابانية الشرقية في تحقيق النصر، وخاصة قيم الفروسية والشرف والتضحية، والتي رأوا فيها، من منظور استشرافي، نقيضاً للتحوّلات في الجندية في المجتمعات الغربية بسبب التصنيع والرأسمالية.¹⁰

إذاً، تحوّلت دراسة الحرب الروسية اليابانية إلى موضوع للاستشراق العسكري من قبل شبكة من المراقبين العسكريين، ومئات المراسلين الصحافيين الذين نقلوا أحداث الحرب يوماً بيوم. وما يهمّنا هنا هو إرسال أوروبا ما يقارب 83 مراقباً دولياً،¹¹ من ضمنهم العديد من المراقبين العسكريين الإنجليز، إلى اليابان لتصبح موقعاً لنقد الأوروبيين لمجتمعاتهم من باب التساؤل عن سرّ انتصار اليابان غير المتوقّع.

أعلن المراقبون العسكريون البريطانيون، وقد صاروا مستشرقين، أن سبب انتصار اليابان الرئيسي في الحرب يعود إلى نجاحها في تحويل قوّتها الاجتماعية والثقافية والسياسية إلى تفوّق عسكري،¹² من منظور تحليلي هو "الثقافة الاستراتيجية" كما ستُسمّى لاحقاً في سبعينيات القرن العشرين، والتي تشير إلى الكل المركّب من الهوية والقيم الاجتماعية والشخصية التاريخية وطرائق التفكير والتحليل والعقيدة العسكرية لمجتمع ما. وبهذا، لم تقتصر كتابات وتقارير المراقبين العسكريين الإنجليز على الدروس العسكرية المباشرة

المستفادة من الحرب ذات النتيجة الصادمة، وتجاوزتها إلى رؤية الدونية هذه المرّة في المجتمع الأوروبي ذاته لا في "الآخر" الشرقي كما هو الحال في المنطق الاستشراقي المتعارف عليه. وتحوّلت طريقة اليابانيين في القتال، بصفتها تعبيراً عن المجتمع والثقافة اليابانية، إلى محاكمة للمجتمع الأوروبي والبريطاني، تحديداً بعدما أثار انتصار مجتمع شرقي فتياً على إمبراطورية أوروبية الهلع الإمبريالي من إمكانية تكراره ضدّ الإمبراطورية البريطانية ذاتها.

وفي المركز من هذا الاهتمام، كانت قدرة المجتمع الياباني على تحمّل خسائر هائلة في الأرواح والاستعداد للتضحية والموت بالآلاف، خاصة في مجتمع مرّ بعملية تحديث مكثّفة في ثورة "الميجي" (1868-1912). هنا، ظهرت مسألة الأصالة المعبرّ عنها بتقاليد الحرب اليابانية (البوشيدو)¹³ والمعاصرة، أي التحديث العسكري المبني على النموذج الأوروبي. ولكن هذه المرة في داخل الغرب ذاته لمواجهة ما تمّ تشخيصه بـ"الانتكاس القومي" في المجتمعات الأوروبية الحديثة،¹⁴ أي ما سبّبه التحوّلات الحديثة، كالصنيع والتمدّن وارتفاع مستوى المعيشة والحياة المادية، من انحدار في قدرة المجتمع البريطاني على تحمّل الخسائر والتضحية في الحروب. ومن هنا، ازداد الاهتمام بالنظام التعليمي الياباني من حيث فاعليته في الحفاظ على الروح القتالية في عصر حداثي وإمكانية استنساخ هذه الفلسفة التعليمية في بريطانيا لهندسة المجتمع الحداثي المحارب، وأوصل المحارب الياباني بحربة "أريساكا" الأوروبيين إلى البحث عن معنى جديد للحرب المقدّسة في العصر الليبرالي، فاهتدوا إلى قداسة لا زلنا نكتوي بنارها إلى يومنا هذا، ألا وهي حرب الدفاع عن القيم الليبرالية، الدين الجديد لأوروبا الحرّة.

2.1 معركة "بورت آرثر" من 8 شباط إلى 23 كانون الأول 1904 الاستسلام الروسي



مرثية رقم (7): معركة حصن "بورت آرثر"، للرسم الياباني شيكو، متحف سانت لويس للفن، 1904. ¹⁵

توصّل المخطط العسكري البريطاني إلى أن مفتاح الانتصار في الحروب الحديثة لا تحدّدده القوة النارية فقط، وإنما الهجمات المركّزة لكتلة كبيرة من جنود المشاة ذوي المعنويات العالية والقدرة القتالية. كانت القراءة العسكرية الأوروبية لدروس الحرب الروسية اليابانية، باعتبارها الحرب الحديثة الأولى، مبهورة بالإنجاز الياباني وخاصة في معركة "بورت آرثر"، ¹⁶ التي عززت القناعة بضرورة التمسك بأولية الهجوم، على الرغم من دخول الرشاش الآلي المعركة، الذي حصد آلاف القتلى من الجنود، وكذلك التقليل من مركزية

دور القوة النارية للأسلحة الحديثة في تحقيق النصر على الخصم. وبذلك، فقد أغفلت القراءة الأوروبية الدرس الدفاعي للقوّات الروسية التي مكّنتها عقيدتها الدفاعية، وعلى الرغم من خسارتها الحرب، من النجاة بالجيش الروسي من الإبادة الكلية في عصر الحروب القومية التي جعلت إبادة الخصم هدفاً، لا فرض الإرادة السياسية عليه فقط. هنا، تبلورت المسألة، أو التحديّ، في كيفية تنفيذ العمليات الهجومية في عصر الحروب الحديثة في مواجهة آلات القتل الآلية. وبصيغة أخرى، صارت المسألة المتعلقة بالعقيدة الهجومية مفتاحها التصالح مع تكبّد خسائر بشرية بأعداد كبيرة كضرورة للحسم الهجومي دون إغفال القوة النارية كعامل مساند لهجوم سلاح المشاة. كما أثبتت ذلك معركة "بورت آرثر" التي انتهت بسقوط الحصن الروسي المنيع بعد خمسة أشهر من الحصار الياباني إثر الحسم بهجمات انقضاضية انتحارية بالحرب اليابانية، والتي خلّفت عشرات الآلاف من القتلى في صفوف القوات الروسية، إلى جانب أكثر من 57 ألف قتيل ياباني. وهنا أيضاً، تمّ تهميش التغيّرات التكنولوجية التي شهدتها الحرب الروسية اليابانية لصالح التشديد على الدور الحاسم للروح القتالية والاستعداد للتضحية كما جسّده الجندي الياباني، كإحدى تبعات الاستشراق العسكري المشار إليه آنفاً. وأما فيما يتعلّق بدور الحرب في الحرب الحديثة، فكان الاستنتاج بأن الحرب ليست سلاحاً ينتمي إلى الماضي، وإنما تجب إعادة تأهيله في العقيدة العسكرية الهجومية المستحدثة. وبطبيعة الحال، كانت هذه الاستنتاجات كارثية كما أثبتته حقول الموت - حرب الخنادق على الجبهة الغربية في الحرب العالمية الأولى، حيث قُتل الملايين من جنود المشاة الذين حصدهم الرشاشات الآلية للمدافعين على خطوط التماس.¹⁷

تطوّر التكتيك القتالي لسلاح المشاة البريطاني تحت مسمّى "القوة النارية والحركة"، أي مرافقة نارية لقوّات المشاة حتى وصولها إلى ما يقارب 200 متر من الخصم، ومن ثم الاندفاع الهجومي السريع بالحرب لحسم المواجهة. ولملاءمة هذا التكتيك، تمّ تزويد سلاح المشاة البريطاني في العام 1904 ببندقية "لي انفيلد" القصيرة (Lee-Enfield SMLE-)، وهي النسخة المطوّرة عن سابقتها (Lee-Enfield - MLE) وتمتاز عنها

بكونها أقصر ب 13 سم وتزن أقل منها بحوالي النصف كيلوغرام، ما يجعلها أكثر ملائمة للحرب المتحركة والانقضاض على الخصم، كما زُوِّدت البندقية المعدلة بحربة (من طراز 1903) بطول 42 سم، بحدٍّ مزدوج وبعارضة مستقيمة (تفصل المقبض عن النصل). ولكن بعد تقصير البندقية وتزويدها بحربة بطول 42 سم، تنبَّه الخبراء الإنجليز إلى أن حربة بهذا الطول ستجعل الجندي البريطاني في موقع أضعف في القتال مقارنة بطول سلاح الخصم. وبالعودة إلى دروس الحرب اليابانية الروسية، فقد تمَّ الاستغناء عن هذه الحربة واعتماد تصميم حربة "أريساكا" اليابانية في الحربة الجديدة (من طراز 1907) بطول 55 سم. لقد كانت ثقافة الحربة البريطانية المستجدة، كما عبَّرت عنها الحربة (من طراز 1907)، نتيجة للدرس الياباني: عسكرياً من حيث نجاعتها الميدانية، واستشراقياً بصفقتها الوسيلة-الأداة التي تُبقى على الروح الفروسية القتالية للجندي البريطاني في عصر الحروب التكنولوجية.

2.2 استدراك أول: من "بورت آرثر" إلى الجليل

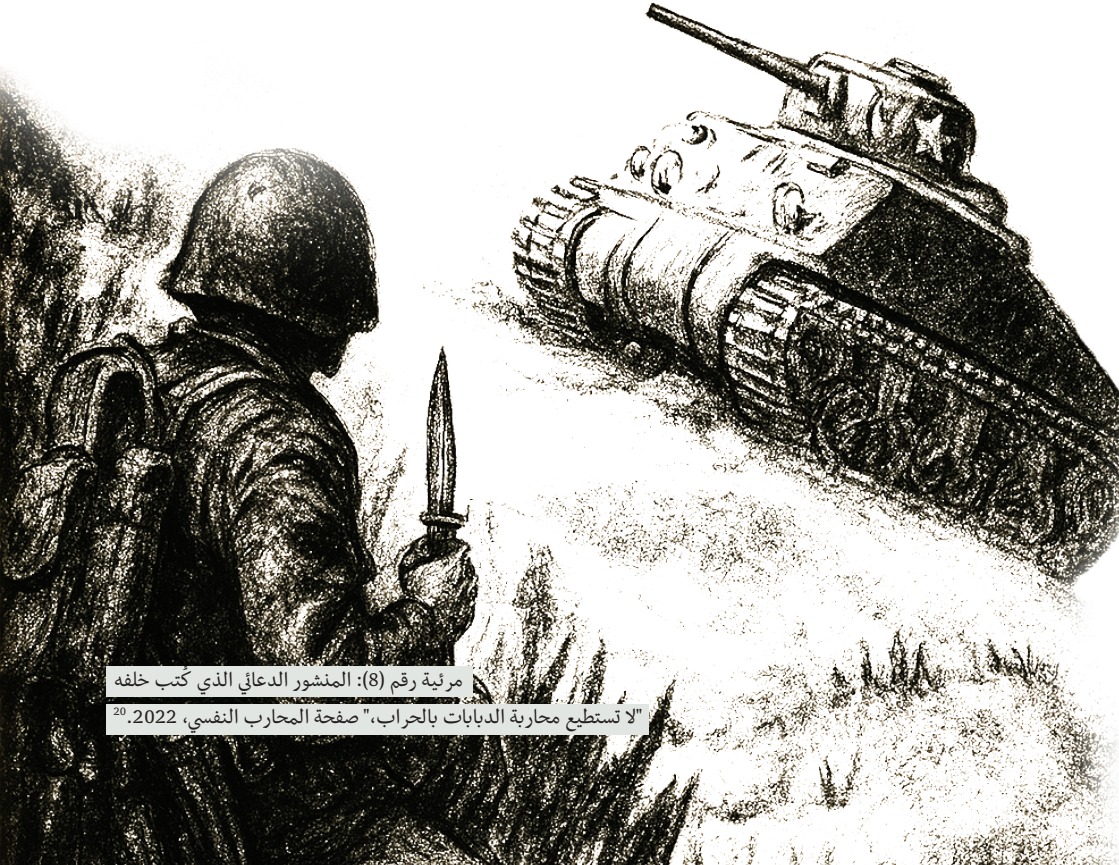
قاتل يوسف ترومبلدور في الحرب الروسية اليابانية في الجيش القيصري الروسي، والذي لُقِّب بـ"بطل معركة بورت آرثر" بعد أن حصل على وسام الشجاعة في قتال اليابانيين وبُتِرَ يده، وكان قتاله المستميت بدافع إثبات رجولية اليهودي لدحض النظرة الدونية من قبل الجنود الروس للجنود اليهود في الجيش الإمبراطوري. وقد كان لمعركة "بورت آرثر" تأثيراً حاسماً في تشكيل شخصيته، فلم يكن صهيونياً حالماً منذ مراهقته بإنشاء مجتمع زراعي في فلسطين كما تصفه أسطورة "تل حاي" الصهيونية، وإنما جاء إلى فلسطين بعد انسداد الطريق أمامه لتحقيق أحلامه في التدرُّج القيادي في الجيش الإمبراطوري الروسي وإنشاء مجتمع زراعي يهودي في أوروبا لنقض صورة اليهودي الطفيلي وبتأثير من كتابات ليو تولستوي.¹⁸

في العام 1920، قُتِل يوسف ترومبلدور برفقة سبعة مستوطنين في هجوم عربي على مستوطنة "تل حاي" (طلحة البرانية- قضاء صفد)، وتمَّ تحويل المعركة إلى واحدة من أهم الأساطير المؤسسة للاستيطان الصهيوني المحارب في بلادنا فلسطين، والتي ترمز

إلى "التضحية والموت" في سبيل الاستيطان الصهيوني، ومن ثمَّ تحوّل موقع المعركة إلى موقع للذاكرة ومحجّاً للأجيال الصهيونية المتعاقبة حتى يومنا هذا.

2.3 استدراك ثانٍ: "لا تستطيع محاربة الدبابات بالحراّب"

ستدور الأيام، وسيستخدم الإنجليز والأمريكان في حربهم النفسية على الجيش الياباني في الحرب العالمية الثانية مناشير مرّوسة بعبارة "لا تستطيع محاربة الدبابات بالحراّب"¹⁹ باللغة اليابانية تدعو الجنود اليابانيين إلى الاستسلام، ولتحوّل حربة "أريساكا" من رمز للنبل العسكري الياباني إلى رمز للهمجية اليابانية في الحرب العالمية الثانية.



مرثية رقم (8): المنشور الدعائي الذي كتب خلفه

"لا تستطيع محاربة الدبابات بالحراّب"، صفحة المحارب النفسي، 2022.²⁰

الحربة سلاحاً لللاهوت الذبح المتحضر

عادةً ما تهيمن على التاريخ العسكري الإمبريالي مركزية الفارق التكنولوجي في الحروب الاستعمارية، وذلك بالنظر إلى الدور الحاسم للأسلحة الآلية في التوسّع والعنف والقمع الاستعماري، خاصة الرشاشات الآلية كمدفع مكسيم الرشاش (1884) الذي أصبح رمزاً للإمبريالية، ويغيب عن هذا التاريخ دور الحربة في العنف الاستعماري. قد يبدو للوهلة الأولى أن الحربة أصبحت خارج الزمن الاستعماري الحداثي، لكنّ التدقيق في الأدبيات الاستعمارية لهذه الحروب يكشف بأن الحربة لعبت دوراً مركزياً في عملية بناء الهوية القتالية "الحضارية" للمحارب الإمبريالي، بعكس المتوقّع بأن التكنولوجيا هي الرمز المستحق لهذه العملية، أي اعتبار السلاح الآلي المتقدم تعبيراً عن التفوّق الحضاري الإمبريالي على الشعوب المستعمرة التي تقاتل بأسلحة تقليدية تتمثّل في "السلاح الأبيض"، كالسيوف والخناجر والرماح والنبال. في الحقيقة، لقد احتلّت الحربة هذا الموقع في الحروب الاستعمارية ضمن التناقضات التي سبّبتها التكنولوجيا في معنى البطولة والنبيل القتالي عند المحارب الإمبريالي من جهة، وفي عملية بناء الفارق الاستعماري ما بين "المستعمر المتحضر" و"المستعمر البدائي" من جهة أخرى.



مرئية رقم (9): لوحة بريطانية لمعركة إيساندهلوانا، تشارلز فريب، متحف الجيش الوطني، 1885. ²¹

إن كل سلاح، بما هو أداة، يكتنز في داخله مكوّنًا ثقافيًا يتجاوز كونه أداة عملية للقتل. وفي تشريح الأسلحة، كمنتج مجتمعي، تظهر المعاني والرموز الهوياتية الثقافية والنفسية المشكّلة لجذلية الذات والآخر في ميدان العداوة. وبهذا، فإن سيرة كل سلاح تتعدّى الأبعاد التقنية لتصميمه وتكتيكات استخدامه وموقعه في العقيدة القتالية. وقد تشكّل معنى الحربة الإمبريالية في الثقافة العسكرية الأوروبية أثناء الصدام مع الشعوب "البدائية" في الإطار العام للرؤية الاستعمارية لـ "الآخر" غير الأوروبي المتوحّش البربري، وكانت أسلحة هذا الآخر، بسيفه وخناجره الغرائبية شكلاً ومسمّى، علامة على بربريته وتعطّشه للدماء، ²² ودلالة على عنفه الحيواني البدائي المنفلت. يورد المؤرخ الإيطالي جيانلوكا باستوري، في دراسته الرائدة في هذا المجال، ²³ أن هذه الصورة النمطية للحرب البدائية المتوحّشة تمثّلت في خوف المحارب الإمبريالي الدائم من الذبح وبتّر الأعضاء وتقطيع جثث المصابين في ميدان المعركة مع "المتوحّشين"، وخاصة من قبل النساء المحاربات بالسلح الأبيض اللواتي قمن أيضاً بدور محوري في تعبئة المقاومين للجهاد في بلاد الأفغان وفي ليبيا. وفي مقابل السلح الأبيض "البربري" في يد المقاومين، قدّمت الحربة الإمبريالية، التي كانت السلح الأبيض الوحيد في يد الجيوش الاستعمارية، بصفته سلاحاً متحضّراً احترافياً يعبر عن ضبط النفس والوعي بحدود العنف في المعركة، ²⁴ أي أن الحربة في يد المقاتل الأوروبي جسّدت الروح الحضارية للحرب الأوروبية الجامعة

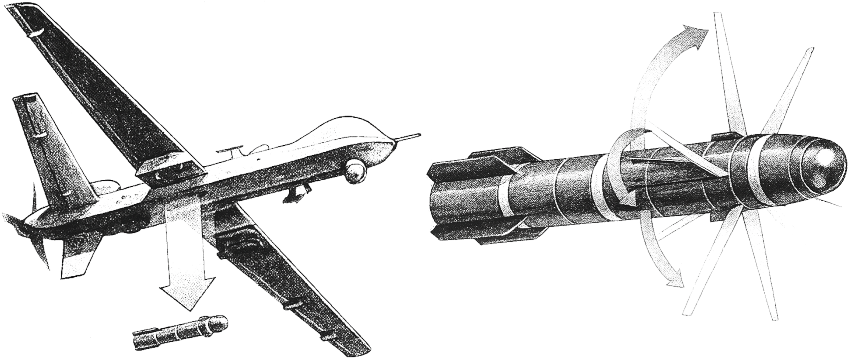
لبرود الأعصاب والاستعداد للتضحية والنبيل القتالي، في مقابل العنف الدموي اللاعقلاني الجبان والمخادع للشعوب المستعمرة. وبهذا، أصبحت الحرب علامة على المحارب الأوروبي الأخلاقي الحضاري من جهة، ومن جهة أخرى كانت آخر ما تبقى في يد المقاتل الإمبريالي المدجج بالأسلحة النارية الحديثة لممارسة المبارزة الفروسية والتحلي بقيم البطولة والفداء والشجاعة في المعركة الحديثة التي باعدت ما بين أجساد المقاتلين ولم يعد الالتحام القتالي فيها ممكناً في الغالب الأعم.

في الحرب الاستعمارية للقضاء على "تهديد" مملكة الزولو للتوسع الإمبريالي في جنوب أفريقيا، (11 كانون الثاني/ يناير 1879 - 4 يوليو/ تموز 1879) تعرّض الجيش البريطاني لهزيمة نكراء في معركة إيساندهلوانا (22 كانون الثاني/ يناير 1879)، تكبد فيها الخسائر الأكبر في الأرواح بين صفوفه منذ معركة "واترلو" (1815) وحتى معارك الحرب العالمية الأولى 1914.²⁵ أسفرت هذه الهزيمة الإمبريالية الثقيلة عن تغيير النظرة الدونية إلى محارب وثقافة الزولو من جانبين: الأول، تقدير إمبريالي لثقافة الزولو الحربية. والآخر، تغيير نظرتهم لرمح "الأسيجاي"،²⁶ من دلالتها على البربرية إلى اعتبارها تجسيدا لمعنى الشرف القتالي لمحارب الزولو ومكافئة للحربة الإمبريالية (ما ينجوا غير بالرّص). فقد كانت مملكة الزولو تمتلك أسلحة نارية، ولكن مقاتليها لم يستخدموها في الحرب لأسباب تتعلق بأخلاقيات الرجولة وشرف القتال التي كان يجسدها رمح "الأسيجاي".²⁷ وهنا، كان مقتل الزولو هو القتال بشرف في عصر حروب إمبريالية بلا شرف.

باختصار، لقد تشكّل معنى الحرب في الصدام الاستعماري بصفقتها أداة الذبح المتحضر النبيل في مقابل الذبح البربري لمقاومي الاستعمار. هذه الثنائية التي ما زالت فاعلة إلى اليوم في وصف مقاومي الاستعمار بالوحشية، في مقابل القتل المتحضر الذي تمارسه الجيوش الاستعمارية مهما بلغت وحشيتها، فالمسألة لا علاقة لها بالأداة وإنما بمن يحمل الأداة.

3.1 استدراك: لاهوت الذبح المتحضر في عصر "الدرون"

في العام 2017، بدأت تقارير إعلامية غربية الحديث عن استخدام أمريكا سلاح سري جديد أطلق عليه "صاروخ النينجا" لتنفيذ الاغتيالات في حربها على "الإرهاب"، وهو صاروخ (HELLFIRE R9X) الذي يتم إطلاقه من طائرات الدرون (إم كيو-9 ريبور)، دون رأس متفجرة وإنما كان مزوَّداً بشفرات حادة تقوم بتقطيع جسد المستهدف وتمزيقه. قُدِّم الصاروخ بصفته سلاحاً للقتل الليبرالي المتحضر لتقليل "الأضرار الجانبية" الناتجة عن عمليات الاغتيال. يصف الصحافي الأمريكي إريك شميت في صحيفة النيويورك تايمز الصاروخ الجديد على أنه: "يوجّه ضربة قاصمة لـ'الإرهابيين' سلاح يجمع ما بين وحشية القرون الوسطى والتكنولوجيا المتقدمة".²⁸



مرئية رقم (10): رسم تخيلي لصاروخ 'النينجا'، سيفيل دالي، 2022.²⁹

هرطقات إمبريالية: تحرير القدس بأسنة الحراب في الحرب العظمى

NEW YORK TIMES, TUESDAY, DECEMBER 18, 1917.

ICKED EAST

and No
Likely
ir.

LOCAL

en Show-
et Pro-
ls.

York Times

RK TIMES-

S' HEAD-

ere is still

also in

ok Château

is fierce

ged and as

soldier in

ighting and

so far any

whether the

all see the

Q. He was missing one night. He had been out to a sap-head in advance of the front line and did not come back again.

There was not a shot fired that night, no scuffle of patrols, nor any raid. Corporal Q. had been spirited away in dead silence by some little party of the enemy, who had been lying close to the British lines in the darkness and had jumped on him as he went his round.

Crowns for Taking One Corporal.

A document, which fell into the British hands after the taking of the Hindenburg tunnel trench, shows that this kidnapping of Corporal Q.—without a shot being fired—was made into a heroic exploit by some German officer, desiring to make most of the affair.

"On the 15th of this month," says the report, "a patrol of the 10th Company of the 471st Infantry Regiment broke into the English trenches and brought back an English prisoner without suffering any casualties. The success of the enterprise was due to the well-devised preparations of the company commander, Lieutenant of Reserve Schafer, who has already established an excellent reputation in Flanders battles, and to the vigorous conduct of Patrol Commander Unter-Offizier Candro, as well as of Lance Corporals Gletz and Litzner and Privates Sabirovsky, Kolling, Drees, Biotevogel, and Steilberg. To all who took part in the enterprise I express full recognition of their brave and capable behavior.

"His Majesty the Emperor and King has awarded to Lieutenant of Reserve

JERUSALEM WON AT BAYONET'S POINT

British Would Not Reply to Artillery Fire for Fear of Damaging the City.

AMERICAN COLONY SAVED

Although Engaged in Relief Work, Deportation Had Begun at Instance of Germans.

LONDON, Dec. 17.—In attacks preceding the surrender of Jerusalem the Turks employed storming troops in successive assaults on Nebi Samuel, northwest of the Holy City, then held by London troops, according to a Reuter dispatch from British headquarters in Palestine. The dispatch, which was sent by airplane, gives details of the capture and entry into Jerusalem.

The final Turkish attack was preceded by a such a heavy shelling that it appeared the enemy was confident the British would be blown off the summit, but all their attacks were repulsed sanguinarily. The Turks had a strong line west, south, and northeast of Jerusalem. They were well provided with machine guns and their artillery dominated the crests over which the British would have to advance. Some

for the admirable staff positions in Jerusalem, 11 early days of the war. Turkish attacks against the Turkish losses in pceded 45,000 dead from food, and overwork. 7 so famished from hunger to fight for the bodies that died in and about there was suspicion and "Everybody suspected with the Allies was imp Many persons were ex these was the Mufti of to a distinguished Ara after an attempt to esca and hanged with his Jaffa gate. All aged su away, but the American 300 was not molested. 1 in relieving distress, aid America.

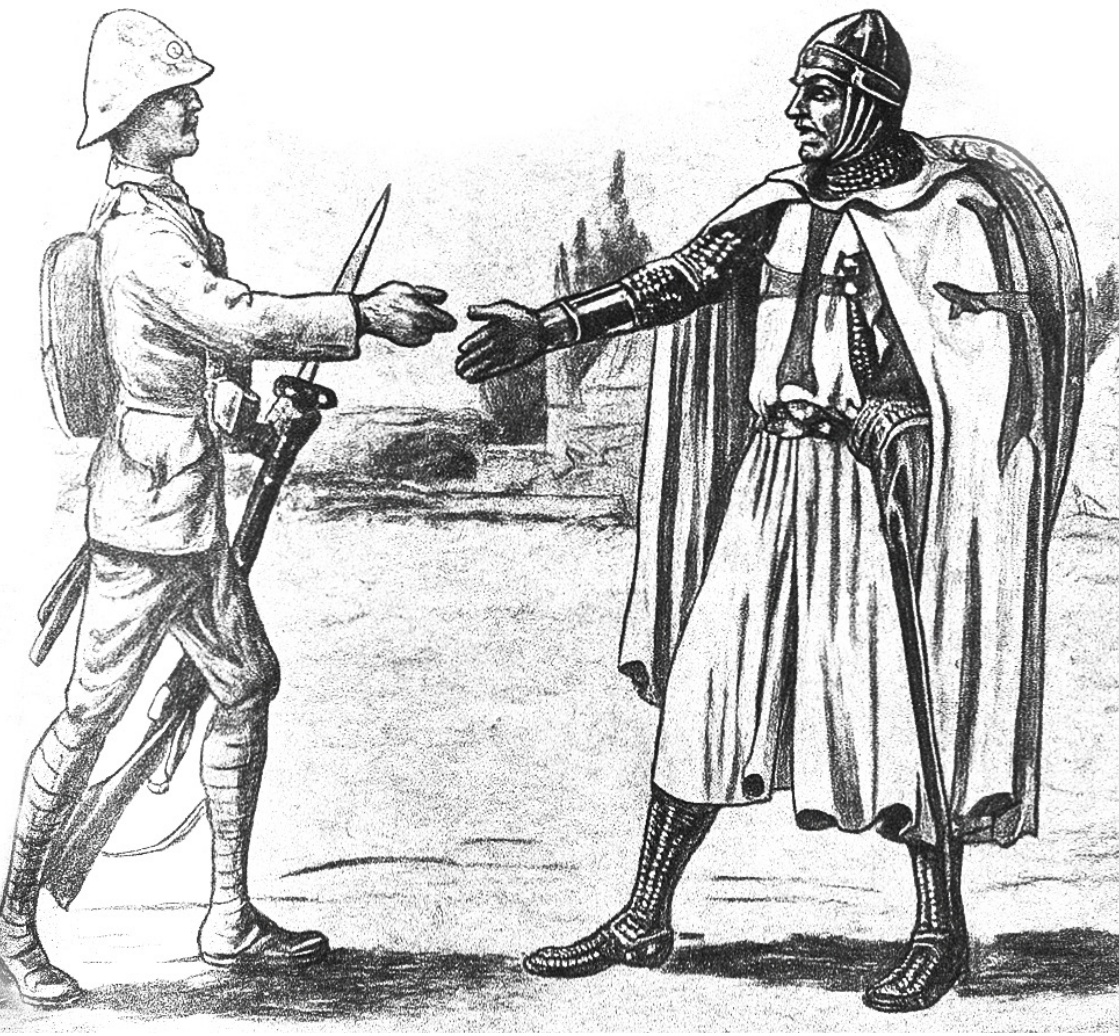
"When the United States relations with Turkey discontinued. Nevertheless of the colony persisted to the best of their ability January and March of assisted more than 250,000 also took charge of ti have done splendid servi Germans attempted to of all Americans from Turks opposed the proper of younger males Damascus. It was also port the remainder, but rival defeated the inten

"Early in November (the Turkish Minister of Jerusalem and returns nople, where he recom town be evacuated. T however, a change was informants were bu proclamation was issued Turks would hold out i new forces were very tr even said some of the were mined

مربية رقم (11): "ظفر بالقدس بأسنة الحراب"، النيويورك تايمز، 1917.³⁰

استمراراً للإرث الإمبريالي للحربة في الحروب الاستعمارية، وبلاستفادة من دروس الحرب الروسية اليابانية، تحولت الحربة في الثقافة العسكرية البريطانية في الحرب العالمية الأولى إلى "فتيش"،³¹ على حد وصف الباحث باول هودجيس في بحثه المرجعي حول الحربة في الجيش البريطاني في إبان الحرب العالمية الأولى. والمقصود بـ"الفتيش" هو أي شيء يتم تقديره لذاته وتتجسد فيه الرغبات النفسية الدفينة بصرف النظر عن فائدته العملية الحقيقية. وهنا وجب علينا التنبيه إلى أن تحليل هودجيس للحربة والتاريخ العسكري للحرب العالمية الأولى بشكل عام مبنيٌّ على تجربة الجبهة الغربية للحرب (في أوروبا).

أما في فلسطين، على الجبهة الشرقية، فإن للحربة (من طراز 1907) تاريخاً وترميزاً ثقافياً ونفسياً مغايراً، وذلك بالنظر إلى طبيعة مسرح العمليات الذي مكّن الحملة على فلسطين أن تأخذ شكل الحرب المتحرّكة والمناورة. فقد كانت الحملة على فلسطين آخر الحروب التي قاتلت فيها قوات الخيّالة وحقّقت فيها انتصاراً، وتحوّلت فلسطين إلى مركز الثقل المعنوي في الحرب العظمى لرفع معنويات الشعب البريطاني، ومن ثمّ ضمان استمرار الدعم البريطاني الشعبي للحرب، في وقت تدهورت هذه المعنويات بسبب حالة الاستعصاء على الجبهة الغربية وسقوط مئات الآلاف من القتلى دون إنجاز عسكري يمكن تقديمه للجمهور البريطاني. هذا، ولا ينبغي أن نغفل الأهداف ذات الطبيعة الاستراتيجية للحملة على فلسطين المتمثلة في الدفاع عن قناة السويس والصراع الإمبريالي-الإمبريالي بين فرنسا وبريطانيا. وضمن هذا المجهود الدعائي، قدّمت الحرب في فلسطين (الأرض المقدّسة) للجمهور الإنجليزي بوصفها حرباً صليبية جديدة، يقاتل فيها الجندي البريطاني على خطى الفارس الصليبي،³² والحرب التي ما زال القتال فيها يتّخذ هيئة فروسية مشتهة في زمن الحرب الحديثة الممكنة، فيما تمّ إغفال الأبعاد العملية والاستراتيجية للحرب في فلسطين كدور الأسلحة الحديثة. كما أخضعت أخبار العمليات إلى رقابة مشددة بما لا يُسيء لشرف الإمبراطورية وصورتها الليبرالية وحربها الرومانسية في الأرض المقدّسة، مثل استخدامها الأسلحة الكيماوية في معارك غزة (أذار-تشرين الأول 1917).³³



مرئية رقم (12): جندي بريطاني يصافح فارس صليبي في القدس، 'نورث هامبتون إنديبنندنت'، 1917.³⁴

وبهذا، تحوّلت صورة العمليات العسكرية في فلسطين في التداول الإعلامي البريطاني إلى صورة بالغة الرومانسية للحرب، تفجّرت فيها القدرات العقلية للعبقريّة العسكرية الأوروبية ببركات الأرض المقدّسة، وتكاثرت أدبيات العبقريات العسكرية لقادتها، خاصة حول الجنرال أّلنبي، محرر القدس وبطل "أرمجيدون" آخر معارك الحراب الملحمية في العصر الحديث. وقد تعزّز هذا التمجيد كله بالمقارنة مع الصيت القيادي المخزي للجنرالات البريطانيين على الجبهة الغربية، الذين اختزلت صورتهم في الثقافة الشعبية البريطانية بمقولة "جيش من الأسود تقوده

الحمير".³⁵ هذا ما تكلمت به أدبيات صناعة الأساطير العسكرية واتبعتها جلُّ العرب في كتابة تاريخ الحرب العظمى في فلسطين. أمَّا ما تكلم به المؤرخ العسكري الأسترالي الرسمي للحملة على فلسطين هنري غولت (Henry Gullet) في تقييم إنجازات أللني في فلسطين، فلم يتعدَّ القول إن "أي جنرال بمؤهلات فوق المتوسط كان بإمكانه أن يحقق نجاح أللني الحاسم".³⁶

4.1 هستيريا الرجولة الإمبريالية

ولأن لـ"الفتيش" غوايته، لنُعُد إلى "فتيش" الحرب في دراسة هودجيس، حيث ينطلق في تحليله لثقافة الحرب في الجيش البريطاني بما يشخصه بأزمة الرجولة البريطانية المحاربة في عصر الحروب الحديثة الممكنة، والرغبة في اختبار الحرب كمبارزة بين خصمين من لحم ودم، والتشوّف إلى لذة الإحساس باختراق السلاح الأبيض-الحربة للحم الأدمي الطري وشهوة الدم، هذه الرغبات التي باتت غير ممكنة الإشباع في الحرب الحديثة. كما ساد الاعتقاد بالأثر المعنوي الجارف للحربة في يد المقاتل البريطاني في بثّ الرعب في نفوس الجنود الألمان المصابين برهاب الحراب لرجولتهم المنقوصة، كما كانت عليه صورة الجندي الألماني في الدعاية الحربية البريطانية.

وقد كان التشديد في التدريبات على فنون الطعن بالحرا ب وسيلةً لشحن الجنود بالعدائية والدافعية لقتال العدو الذي أصبح الاشتباك معه عن بعد. كان كل ذلك رغم أن الحرب (من طراز 1907) حملت معها عيوباً عملية، إذ كانت تهدّد بكشف مواقع الجنود ليلاً إذا ما لمعت في الظلام، وكان طول الحرب المبالغ فيه (55 سم) المثبّنة على بندقية "لي انفيلد" يجعل الحركة صعبة في الخنادق الضيقة. وبسبب كل هذه النقائص العملية، كانت الفرصة السانحة الوحيدة لاستخدامها لاختبار الرجولة البريطانية تتمثّل في قتل الأسرى والمصابين وارتكاب الفظائع بالتمثيل بجثث القتلى. استعار الإنجليز الحرب في اليابانين، ووضعوها في يد من لا يمتلك الروح القتالية والاستعداد بالتضحية، فانقلبت في يد الإنجليز سلاحاً فعّالاً لارتكاب جرائم الحرب.

تتمثل الإشكالية الأهم في دراسة هودجس في إغفاله التام الإرث الاستعماري للحربة، إذ لا يمكن فهم الأصول الدفينة لما سمّاه بـ"فتيشية الحربة" دون إرجاعه إلى السياق التاريخي الدموي للحربة في حروب الإمبريالية وممارستها للفظاعات، ما أطلقت عليه أعلاه لاهوت الذبح المتحضّر. فبالنظر إلى الحقيقة التاريخية القائلة إن كل العمليات العسكرية للجيش البريطاني السابقة للحرب العالمية الأولى كانت حروباً إمبريالية وحشية للتوسع الإمبريالي وقمع الثورات المقاومة للإمبريالية البريطانية في المستعمرات، حيث تشكّلت الخبرة الدموية و"فتيشية الحربة" لا على أرض أوروبا... ما يتّضح جلياً في الصور النمطية للجندي الألماني التي هي بمثابة إعادة إنتاج للصور النمطية لمقاومي الإمبراطورية في المستعمرات، غير المتحضّرين والمتعطّشين للدماء بلا رجولة.

في السياق ذاته، يورد مايكل براون،³⁷ الباحث المخضرم في تاريخ التكنولوجيا، في إطار تفسيره للحماسة العسكرية والشعبية الإمبريالية للحربة، بكونها جاءت حلاً للقلق من انتكاس الرجل البريطاني جسدياً ونفسياً بسبب التقدم الحداثي، وما سبّبَه هذا القلق من خوف على مستقبل الإمبراطورية دائمة الحاجة للمحاربين لإعلاء رايته وإدامة هيئتها.

بالعودة إلى هزيمة البريطانيين في معركة "إيساندهلوانا" أمام محاربي الزولو، والتي اعتُبرت إهانة للإمبراطورية، فقد عُزيت إلى الانتكاسة الجسدية للمقاتل الأبيض في مواجهة مقاتل الزولو الرشيق مفتول العضلات، وتمّ تفسير تقهقر جندي الإمبراطورية في معارك الالتحام المباشر نتيجةً لفساده المعنوي والجسدي بعد دخول الأسلحة الآلية (المدفع الرشاش تحديداً الذي اعتُبر نعمة ونقمة). من هنا، يمكن فهم تحفّظ المؤسسة العسكرية البريطانية وممانعتها للتكنولوجيا، إذ لم تُعد الحرب تنتج أبطالاً وإنما رجولة مزيفة. وقد أدّى هذا القلق الاستعماري، بسبب التحوّلات الحداثيّة وأثرها على الجنديّة، إلى تحويل جسد الجندي البريطاني إلى موضع اهتمام عند المفكرين العسكريين، كما أدت الحروب التكنولوجية الاستعمارية والحسم السريع فيها بعدد ضحايا قليل إلى تحوّل هذه الحروب في

الثقافة الإمبريالية إلى صورة الغزو والمغامرة. وقد كان هذا كله مدعاة للقلق من قدرة الذكر البريطاني على الدفاع عن الإمبراطورية والحفاظ عليها. ومن هنا جاءت القناعة بأن الحراب تحوّل الرجال إلى نمور معنوياً وجسدياً، هذا ما كان عليه قلق الحداثة في نسخته العسكرية.

أما أزمة الرجولة الإمبريالية على الجبهة الشرقية في فلسطين، فكان لها معنى آخر بحسب الباحثين فاونتاوزو وويلسون.³⁸ فقد عانى جنود الإمبراطورية من قلق في هويتهم الرجولية بسبب اعتقادهم بأنهم يحاربون على جبهة هامشية لا تمثل الحرب الحقيقية التي اعتقدوا أنها تدور في خنادق الجبهة الغربية حيث البطولة الحقيقية، ولا بدّ أن عائلاتهم في الوطن يشعرون بالخزي أمام عائلات جنود الجبهة الغربية التي طغت وقائعها على الأخبار القادمة من الجبهة، فبطولاتهم الذكورية منسية فيما يتقلّب جنود الجبهة الغربية في نعيم صورة المخلّص البطل لنساء فرنسا، فلا نساء حقيقيات في الشرق لكي يمارسوا دور المخلّص البطل لهن. يغيب عن دراسة فانتاواز وويلسون أن صورة الجندي الإمبريالي كبطل مخلص للنساء في الحرب العظمى في فلسطين،³⁹ سيتمّ تحصيلها عندما بدأ جنود الإمبراطورية يرون نساء أوروبيات المظهر ويتصاعد الشبق عند لقاءهم الأول بنساء المستوطنات اليهودية في فلسطين اللواتي استقبلنهم بالغمزات والقبلات والأحضان كأبطال مخلصين لهنّ من الاحتلال العثماني الشرقي.

كان أول لقاء بين "المخلصين" والنسوة الأوروبيات في مستعمرة "غديرا"، التي تأسست في العام 1884 على أراضي قرية قطرة المهجرة على بعد 15 كم إلى الجنوب الغربي من مدينة الرملة. ففي المستعمرات اليهودية في فلسطين، ذات المعمار الأوروبي والنبذ الوفير، كان اللقاء الأول لجنود الإمبريالية بأوروبا للمرة الأولى منذ تركهم بلادهم منذ ثلاث سنين. وسيلعب هذا اللقاء دوراً محورياً في تعاطف الجنود مع المسألة الصهيونية، وخاصة القوات الأسترالية-النيوزلندية "الأنزاك" الذين كانوا دوماً في الطليعة، وستظهر المقارنات بين القرى العربية البائسة القذرة لأهل البلاد والمستوطنات الأوروبية الصهيونية التي تذكّرهم "ببلادهم". ستكون لهذا اللقاء أبعاد خطيرة في نفوس جنود

الإمبراطورية، وستفيض مشاعر العدائية والعنصرية لأهل البلاد الأصليين المتخلفين الذين لا يستحقون الأرض المقدسة، وستصل هذه العدائية إلى مداها الأقصى في مجزرة صرفند الخراب، 10 كانون الأول 1918، كما سيأتي تفصيله لاحقاً.



مرثية رقم (13): قوات "الأنزاك" في قرية زرنوقة-الرملة، كانون الثاني 1918؛⁴⁰ وضباط أستراليون يحتسون الشاي

في أحد بيوت مستعمرة "ريشون لتسيون"، تموز 1918، متحف الذاكرة الحربية- أستراليا، 1918.⁴¹



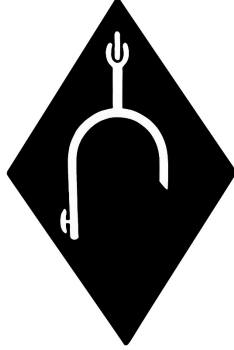
لم تُعرف في الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى قوة عسكرية اعتمدت على الحرب (من طراز 1907) أكثر من قوات الجيش البريطاني التي احتلت فلسطين.⁴² من هنا نفهم الهوس الإمبريالي بسرد قصص البطولة لهجمات الحراب البريطانية، والتي لا حصر لها في الأدبيات الاستعمارية حول الحملة على فلسطين في الحرب العظمى، ومن المفيد تأطيرها لفهمهما ضمن السياقات التالية .

بسبب طبيعة مسرح العمليات العسكرية في الحرب على فلسطين، لعب سلاح الخيالة البريطاني على الجبهة الشرقية مقابل الجبهة الغربية دوراً رئيساً في الهجمات والمعارك، وخاصة في معركة "أرميجدون" (مجدو) أيلول 1918 - مع العلم أن اختيار اسم مجدو كان اختياراً دعائياً بحثاً بما يتوافق مع الدعاية الدينية للحرب، أما اسم المعركة المعتمد في التاريخ العسكري العثماني فهو "معركة نابلس" وهو الأقرب للحقيقة التاريخية - وكذلك في الهجوم الشهير بالحراب لقوات الخيالة الأسترالية - النيوزلندية "الأنزاك" في معركة بئر السبع. وقد أسهمت هذه المعارك في تشكيل صورة البطولة التي أحاطت القوات البريطانية المشاركة في الحملة على فلسطين في الأدبيات الاستعمارية، وخاصة التقدم السريع من يافا إلى دمشق خلال ستة أسابيع بحلول العام 1918.

لا يعود الاهتمام بدور سلاح الخيالة في فلسطين إلى حقيقة دوره في الإنجازات العسكرية وحسب، وإنما لرد الاعتبار لهذا السلاح مقارنة بفشله على الجبهة الغربية، حيث خلّفت هجماته خسائر كبيرة في الأرواح، بالإضافة إلى نقد الرأي العام حول قادة سلاح الخيالة عموماً الذين يتهمهم بالرجعية والفشل في التكيف مع الحرب الحديثة. وكذلك لرد الاعتبار للعمليات العسكرية على الجبهة الشرقية ضدّ اختزال مجريات الحرب العظمى على الجبهة الغربية، ودون الالتفات للشكل المغاير للعمليات على الجبهة الشرقية في فلسطين تحديداً. من هنا، يمكننا القول إن فلسطين كانت من أكبر ضحايا الجبهة الغربية التي تبعد عنها آلاف الكيلومترات. فقد كانت الإشادة بالهجمات الانقضاضية بالحراب لسلاح الخيالة، ودورها المركزي في تحقيق الانتصار البريطاني في حرب فلسطين، للمحاججة بأن

سلاح الخيالة ليس سلاحاً من الماضي وبأن الإمبراطورية بحاجة إلى أفضل رجالها للقتال في صفوفه. كل ذلك ضمن الصورة العامة التي تمّ تصديرها حول الحرب في فلسطين بكونها حرباً نبيلة تجلّت فيها شجاعة الجنود وبراعة القيادة وتمّ فيها تهميش دور الأسلحة الحديثة مثل سلاح الطيران والأسلحة الآلية، في معركة مجدو تحديداً، في حسم الحرب تعبيراً عن نوستالجيا الزمن الذهبي الضائع لعصر الفرسان.

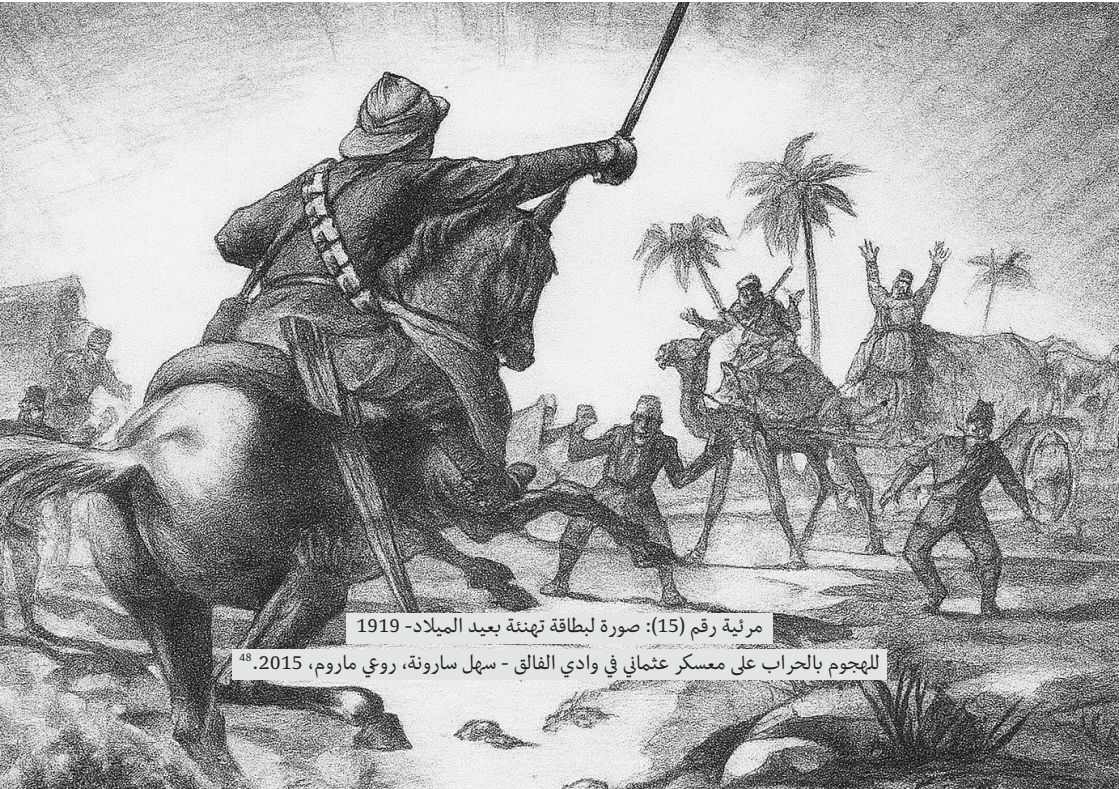
ومن هنا جاء التنافس، بل الصراع، بين مكوّنات الجيش البريطاني الإثنية: بين خيالة "الأنزاك" الأسترالية-النيوزلندية وفرقة الخيالة المتطوعة "اليومناري" الإنجليزية على حيابة لقب صاحب آخر هجوم لسلاح الخيالة في العصر الحديث، ما بين معركة بئر السبع 31 تشرين الأول 1917 لـ "الأنزاك" ومعركة هوج (قرية مهجرة قضاء غزة) للخيالة المتطوعة في 8 تشرين الثاني 1917. بالنسبة لخيالة "الأنزاك"، فقد بدأ الاحتقار المتزايد لفرقة الخيالة المتطوعة البريطانية (yeomanry) بعد فشل هذه الأخيرة المتكرر في بداية الحملة على فلسطين في معارك سيناء، مع أنها كانت تتمتع برفاهية التمييز لصالحها من جودة الخيام والطعام مقابل حال جنود "الأنزاك" المتواضع الخشن،⁴³ وهو الحقد الطبقي العسكري ذاته الذي سرى أيضاً في نفوس الجنود العثمانيين ضدّ أخوة السلاح الجنود الألمان على جبهة فلسطين. ومع إنزال ثلاث كتائب من الخيالة الانجليز منهم عن الخيل وتحويلهم إلى مشاة (الفرقة 74) في آذار 1917، وأتخاذها شعار المهماز المكسور، وصل الاحتقار الأسترالي للإنجليز إلى أقصاه، ولا سيما بعد الفشل الذريع للفرقة 74 المكوّنة من مشاة الخيالة المتطوعة الإنجليز في معركة القدس الأولى (تشرين الثاني 1917) على جبل أبو زيتون في قرية بيتونيا... هذه المعركة التي أرادها اللبني معركة أسطورية تجسّد عبقريته العسكرية في احتلال المدينة المقدسة دون قتال، والتي هدف فيها إلى دفع الجنود العثمانيين المدافعين عن المدينة إلى الاستسلام من خلال قطع طريق الإمداد عنهم (طريق القدس-رام الله)، انتقاماً للإهانة التي أحسّ بها بعد نقله من الجبهة الغربية إلى الشرقية، والذي اعتبره إجراءً عقابياً بحقه بعد تكبّد قوّاته خسائر فادحة في معركة "أراس" في فرنسا في أيار من العام 1917.



مرثية رقم (14): شعار المهماز المكسور للفرقة 74 بعد تحويلها من وحدة خيالة إلى مشاة، كتاب الفرقة الـ 74 في سوريا وفرنسا، 1922.⁴⁴

وقد دار قبيل الحرب العظمى سجال ما بين المنظرين العسكريين حول دور سلاح الخيالة في الحرب الحديثة، خلُص إلى تعريف قواته بكونهم مشاة مسلّحين ببنادق آلية يركبون الخيل للتنقل، لا فرساناً بالمعنى التقليدي للمفهوم، وإلى أن العامل الحاسم في عملياتهم العسكرية هو القوة النارية التي تسمح بالهجوم ومن ثمّ الاحتفاظ بالأرض، لا قتالهم بالسلاح الأبيض. ولكنّ طبيعة ميادين القتال في فلسطين تحديداً، التي تسمح بالمناورات المتحرّكة، بالتضافر مع غياب خطوط الدفاع العميقة للجيش العثماني وبالتحديد غياب الأسلاك الشائكة حولها، هذه الأسلاك التي تجعل العمليات الانقضاضية للفرسان شبه مستحيلة، كل هذا أدّى إلى الاعتماد المتزايد على الهجمات الصاعقة بالسلاح الأبيض (الحراب من طراز 1907)، واختبار فاعليتها في عدّة معارك، نذكر أهمها: بئر السبع والمغار وهوج وتل الصافي وعيون قارة ووادي الفالق ومجدو وسمخ، والتي تحوّلت فيها قوات المشاة المحمولة على الخيول إلى سلاح فرسان،⁴⁵ تقاتل بتكتيكات الخيالة التقليدية.⁴⁶ فتأمل كيف يمكن لسلك شائك أن يكون فاعلاً في تاريخ بلاد تعيش لعنة الأسلاك الشائكة منذ أكثر من مئة عام!

باختصار، تحوّلت فلسطين إلى "مصحة نفسية كبيرة" يتعافى فيها جنود الإمبراطورية من عقدهم النفسية بممارسة القتال الرجولي الفروسي والعنف الدموي بالتلذذ بذبح الجنود العثمانيين الأسرى والجرحى بالحراش (من طراز 1907) وممارسة السادية الاستعمارية ضدّ أهل البلاد. فقد استعمل جنود الإمبراطورية التهديد بالذبح بالحراش لتهجير المضارب البدوية القريبة من معسكراتهم في سيناء وفلسطين. وعندما رفضت امرأة ترك ديارها، خطف جندي من "الأنزاك" طفلها جاعلاً الحربه حاجزاً بين الأم و"وليدها"، فيما حاولت الاقتراب من الجندي لتقبيل يده لكي يترك ابنها.⁴⁷ ولاحقاً، ستصبح فلسطين "مصحة نفسية كبيرة" لليهودي المستوطن ليتخلّص من عقد الدونية وإثبات رجولته المخصّية في الغيتوات الأوروبية بممارسة الوحشية الدموية ضدّ الفلسطيني صاحب الأرض..



مرثية رقم (15): صورة لبطاقة تهنئة بعيد الميلاد- 1919

لل هجوم بالحراش على معسكر عثماني في وادي الفالح - سهل سارونة، روي ماروم، 2015.⁴⁸



مرثية رقم (16): معركة هوج - غزة، "ليدي بتلر"، متحف فرقة الخيالة المتطوعة اليومانري، 1919. وصاعق لقذيفة مدفعية

بريطانية مضادة للأفراد (shrapnel) من الحرب العالمية الأولى عثر عليها في موقع معركة هوج، تصوير المؤلف، 2022.⁴⁹



4.2 معركة بئر السبع 31 تشرين الأول 1917 حِراب الإمبريالية المتوهجة تحت شمس فلسطين

في 26 تشرين الأول 1917 أصدر اللواء هنري هدغسون (Henry Hodgson) قائد فرقة الصحراء الراكبة أمر القتال التالي للخيالة الأستراليين: "هذه البلاد خُلقت لحرب الخيالة... عليكم الهجوم راكبين بالسلح الأبيض، فالحِراب (من طراز 1907) يمكنها أن تستخدم كسيوف للطن. اشحذوا حِرابكم التي لها نفس التأثير المعنوي [على العدو] مثل السيوف عندما تتوهَّج تحت الشمس..."⁵⁰ يمكننا القول إن هجوم الخيالة الأستراليين (الأنزاك) بالحِراب على القوات العثمانية في بئر السبع، فيما صار يُعرف لاحقاً بمعركة بئر السبع ضمن معركة غزة الثالثة، هو أحد أهم المِعارك الفاصلة في تاريخ فلسطين الحديث بالنظر إلى ما نتج عنها من تقرير مصير فلسطين الحديث بدخولها تحت الاستعمار الأنجلو-صهيوني حتى يومنا هذا. في هذا السياق، من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن وعد بلفور (2 تشرين الثاني 1917) أعلن بعد ثلاثة أيام من وصول أخبار الانتصار في معركة بئر السبع، والتي أدَّت إلى انكسار خط الدفاع العثماني الحصين بئر السبع-غزة، ومن ثم احتلال القدس في 9 كانون الأول 1917 هدية لويد جورج للشعب البريطاني بعيد الميلاد "الكريسما" لرفع معنوياته المنهارة على الجبهة الغربية. ولم تقتصر أهمية معركة بئر السبع بكونها بداية الاكتساح البريطاني لفلسطين وسقوط القدس والاستعمار الصهيوني فلسطينياً وعربياً، وإنما تحوَّلت ذكرى المعركة إلى أسطورة جديدة لتجديد الهوية القومية لـ "الأمة الأسترالية" بالتعاقد مع أسطورة معركة "غاليبولي" (جناق قلعة)، غاليبولي الكارثة وبئر السبع البطولة، وفي إعادة تأكيد أسطورة "الأنزاك" كنواة لبناء الأمة الأسترالية بالاستئناس بـ بنديكت أندرسون حول طقوس بناء "الأمة المتخيَّلة".

وبذا، فقد تحوَّلت معركة بئر السبع إلى موقع مستحدَث في صناعة الهوية الأسترالية عبر الإنتاجات الثقافية المختلفة (الأفلام والمذكرات والأعمال الأدبية) والحج إلى

مواقع المعركة، حيث أنشأ الصهاينة مسار "الأنزاك" للحجيج. كما ساد في التاريخ العسكري الأسترالي القومي الاحتفاء بمعركة بئر السبع بصفتها آخر الهجمات الكبيرة لسلاح الفرسان الخيالة في الحرب الحديثة. وكما يحدث دائماً في كتابة التاريخ القومي العسكري بالتركيز على البطولة والدَّهاء، لم تُكتب أحداث المعركة ضمن سياقها العسكري العمليّاتي البحت الذي جعل نجاح هذا الانقضاض ممكناً، مثل القوة النارية للمدفعية البريطانية المساندة،⁵¹ والوضع اللوجستي الصعب للقوات العثمانية المدفوعة، والحقيقة التاريخية التي يوردها إدوارد أريكسون في ختام تأريخه لمعركة بئر السبع بالقول: إن فيلقين كاملين من المشاة البريطانيين احتاجوا طوال يوم الـ 31 من تشرين الأول لزحزة 1400 مقاتل عربي من أهل البلاد من الفرقة الـ 27 (المكونة من الفوج الـ 67 والفوج الـ 81) من خنادقهم الدفاعية عن بئر السبع. ما يقارب الـ 80 % من عديد الفرقة الـ 27 كانوا من العرب، وبعد كل هذه البطولة المشرفة حولهم المراقبون الأتراك إلى كبش فداء بتحميلهم مسؤولية سقوط بئر السبع!⁵²



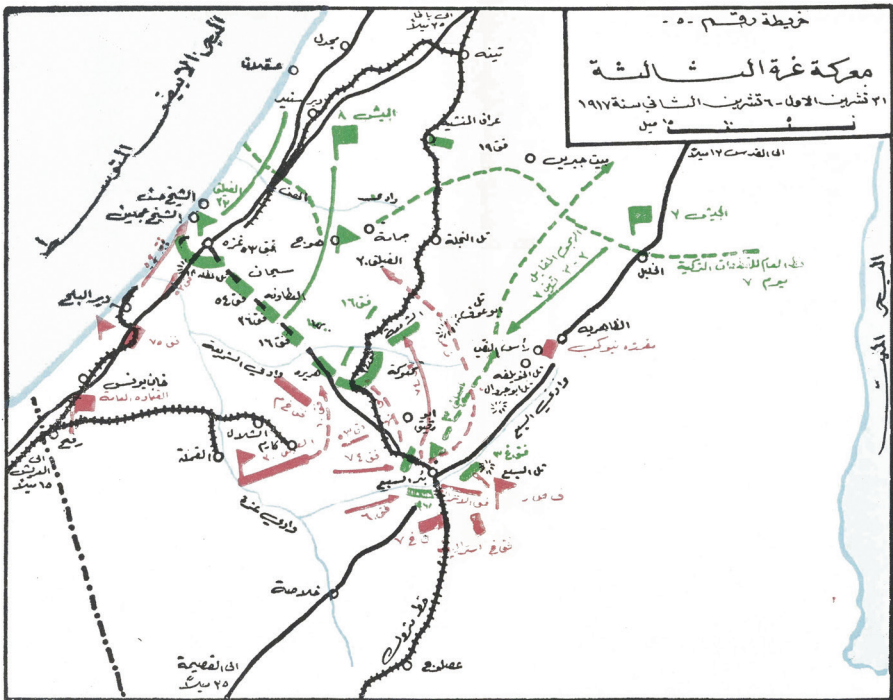
مرثية رقم (17): هجوم "الأنزاك" بالحراب في معركة بئر السبع، متحف الذاكرة الحربية- أستراليا، 1918.⁵³

وكما هو الحال في صناعة الأساطير المؤسّسة للهوية القومية، تحوّل تاريخ المعركة إلى ذاكرة مهندّسة ومتخيّلة تتمحور حول البطولة والتضحية والنبيل، ولكن للسيد تاريخ طرقة الدائمة في إفساد الأساطير... فلم تكن "الأنزاك" سوى مجموعة من القتلة ذات تقاليد عريقة في ممارسة العنف الدموي بذبح الأسرى، والتي تعود إلى التجربة الأسترالية التاريخية الاستيطانية في حروب التخوم (1788-1934)، والتي شهدت مذابح لا تحصى للسكان الأصليين،⁵⁴ وحيث تبلورت الأصول المليشاوية لـ"الأنزاك".⁵⁵ فقد استخدم الجنود المسمّيات ذاتها من مثل "نيجروز" و"داركيز" في وصف السكان الأصليين الفلسطينيين، وكذلك المصريين خلال قمع ثورة 1919 التي أشعلها فيلق العمّال المصري العائد من جبهات الحرب العظمى ومن ضمنها فلسطين، قبل أن تستولي عليها البرجوازية الوطنية المصرية، فضاع ذكرهم واعتلى ذكر الباشوات.

في أسطورة "الأنزاك" في معركة بئر السبع وفلسطين، صار القتلة أبطالاً للحملة على الأرض المقدسة، فلم يكن "تحرير" القدس ممكناً دون صورة الفارس الأسترالي الملوّح بحربته فوق حصانه التي دُمّرت معنويات الخصم وحسمت مستقبل "إسرائيل"، وأصبحت مكوّناً في بناء الدين العلماني للقومية الأسترالية في معمدانية المعركة.⁵⁶ في المقابل، كانت طقوس معمدانية معركة الحراب في بئر السبع وغيرها، والمبالغة بالبطولة في وجهها الآخر، تعبيراً عن قلق هويّاتي أصيل داخل مجتمع المستوطنين الوليد في أستراليا، حيث البطولة العسكرية دليل على أن انفصالهم عن الوطن الأم لم يجعل منهم جماعة إثنية منحلة،⁵⁷ وأنهم بطبيعتهم محاربين أشدّاء وخيّالة شجعان. وكل ذلك لمواجهة الاحتقار البريطاني لهم لأصولهم الريفية الدونية،⁵⁸ وبالطبع كان القتال بالحربة هو التجسيد المادي لكل هذه المواصفات "القومية".



مرثبة رقم (18): طابع بريدي صهيوني تذكاري لمعركة بئر السبع، البريد الصهيوني، 2013.





مرثية رقم (20): جنود عثمانيون ومقاتلون عرب في بئر السبع، مسعود أيار، 2020.⁶⁰

أَوَّلُ الدَّم: مجزرة صرفند الخراب 1918

"تجمّع النيوزلنديون والأستراليون وهاجموا القرية وجاسوا فيها بالحرايب."

إدوارد أوبراين، جندي من فرقة الأنزاك وأحد مجرمي المجزرة، 1988.⁶¹



مرثية رقم (21): قرية صرفند الخراب بعد المجزرة،

ويظهر في الصورة جثمان أحد شهداء القرية عند بئر الغارب، متحف الذاكرة الحربية-أستراليا، 1918.⁶²

في ليلة العاشر من كانون الأول 1918، أغارت مجموعة من جنود الإمبراطورية البريطانية مكوّنة من فرقة "الأنزاك" أساساً على قرية صرفند الخراب غربي الرملة، وبعد

أن فرضت طوقاً مشدداً على القرية بدأت بحرق منازلها وقتل أهلها. كانت حصيلة المجزرة استشهاد العشرات من أهالي القرية وتدميرها وتهجير من تبقى من أهلها على قيد الحياة. طوى تسارع الأحداث العاصفة، التي أعقبت الحرب العالمية الأولى في فلسطين، ذكرى المجزرة "الأولى" وفاتحة عهد التهجير والمجازر الاستعمارية في الزمن الأنجلو-صهيوني لفلسطين المستمر إلى يومنا هذا، وبقيت المجزرة غائبة كلياً عن الكتابة التاريخية الفلسطينية توثيقاً ودراسةً.

أما ما يجعل هذه المجزرة فصلاً من سيرة سنجة سَيَّ يامنة، فقد تقاطعت المصادر التاريخية على أن هذه المجزرة نُفِذت بالسلاح الأبيض بالحرب (من طراز 1907) بشكل أساسي، بالإضافة إلى الهراوات، وذلك لقناعة منفذها بالرعب الذي يزرعه السلاح الأبيض في نفوس غير الأوروبيين، وبأن هذا السلاح يشفي الغليل في الانتقام. جاءت هذه المجزرة بعد انتهاء العمليات العسكرية في فلسطين، وأقوم ببحثها في هذه الدراسة ضمن سياق الصراع التاريخي المديد مع الاستيطان الصهيوني في السهل الساحلي الفلسطيني في ريف الرملة في لحظة اللقاء الإمبريالي مع الاستيطان الصهيوني في فلسطين في الحرب العالمية الأولى.

لم تكن مجزرة صرفند (10 كانون الأول 1918) هي المجزرة الوحيدة التي ارتكبتها القوات البريطانية في فلسطين خلال الحرب العظمى، كما سيأتي بيانه تالياً، ولكنها تميّزت أولاً بكونها الأكثر دموية من بين ما وصل إلينا من هذه المجازر، وثانياً والأهم هو الدور الصهيوني فيها، من حيث كونه استهدف القرية الفلسطينية كوجود جماعي ونتج عنه أول واقعة تهجير لقرية فلسطينية بعد الحرب العظمى، والتي ستتوالد خلال أحداث حرب النكبة 1948. ولا تهدف هذه الدراسة إلى "فضح" الجرائم الاستعمارية وإثبات المظلومية التاريخية، كما هو ديدن كتابة تاريخ المجازر الاستعمارية في فلسطين، وإنما تهدف أساساً إلى التأريخ للمجزرة في فلسطين من منظور التاريخ الجزئي في البحث التاريخي، من حيث كونه مسعى للفهم ينطلق من واقعة محدّدة لفهم

السياقات والديناميات الكبرى طويلة الأمد التي تولّد الأحداث في سياقاتها العسكرية والأيدولوجية والاقتصادية والسياسية المرّكبة، الناشئة في حالة مجزرة صرفند الخراب مع ولادة "الكوبانيات" الصهيونية في ريف الرملة وفي فلسطين عموماً في العام 1882 تحت الحكم العثماني. ومن ثمّ يأتي البحث في سياق العمليات العسكرية البريطانية في الحرب العظمى في فلسطين والتركيبية الإثنية لجنود الإمبراطورية، النيوزلنديين والأستراليين تحديداً، حيث تقاطعت هذه السياقات كلّها على جسد صرفند الخراب في لحظة اللقاء الإمبريالي الصهيوني المعبر عنه في وعد بلفور استراتيجياً، وعلى الأرض في اللقاء الاستعماري بين جنود الإمبراطورية والمستوطنين الصهاينة، فكانت المجزرة وليدة لهذا التقاطع التاريخي.

(لقد استخدم أهل البلاد ولا زالوا يستخدمون مصطلح "الكوبانية" في تسمية المستعمرات الصهيونية، والكلمة تعود في أصلها إلى الكلمة الأعجمية "كومبانيا" (Compania)، أي الشركة، والتي عُرِّبت في مصر بـ "قومبانية"، والتي دخلت على الأرجح إلى فلسطين من هناك وخفّفها اللسان الفلاحي فصارت "كوبانية". كما استخدم أهل البلاد مصطلح "القولانية"، كتعريب لكلمة "كولوني" (Colony)، أي المستعمرة، في تسمية المستعمرات الصهيونية الأولى، والتي كان يستخدمها الصهاينة أيضاً. وتمّت لاحقاً ترجمتها إلى العبرية "موشاف"، واستُخدمت حصراً لمستعمرات الملكية الخاصة. وفيما بعد النكبة، اعتمد اسم "موشاف" ككلمة عبرية أصيلة (اسم علم) وقُطعت عن أصلها "كولوني"، المستعمرة، واعتمدت قريباً منها كلمة "موشاف" المستخدمة للمستعمرات اشتراكية الطابع).⁶³

لجانته معالة الشرطة العظمى العظمى

دولته وثمانون ألفه حفرته
 العدمه به بعد العدمه المرحه اهل القلا المارده الى القولايات يهود وانه وكيونه قاره ان لا كانت الدوله العدمه حفرته ثمانون ألفه حفرته
 على ارضه وهاك والوزير العدمه نرى هذا المرحه وانه وكيونه قاره ان لا كانت الدوله العدمه حفرته ثمانون ألفه حفرته
 وانضباط الامور ولا كانت اليهود المذكوره به عم نعمانيهم على اهل قولا والقتل والقتل وحلف العدمه منهم يهود لا تقدر نصفها لعماليهم
 حتى انها في شيمه لا خطاب فيه حتى يسلح له قمار اذا بلغ هذه القدره على تجنبا القدره باليهود من دولته ثمانون ألفه حفرته
 وانهم معرجه نعمانيهم قد عيونهم ليسوا بجانب يهود وهاك العدمه يسكنوه ويغربوه واماخذونه هدمه ونفوره وكل هذا القدره ثمانون ألفه حفرته
 الخويل على طرقه العدمه وكل من سر عن الطوبه يافزاد اهل القلا العدمه يسكنوه ويغربوه واماخذونه هدمه ونفوره وكل هذا القدره ثمانون ألفه حفرته
 وما لحد يلقوا العدمه التي به عدلان به اليهود العدمه ويقتلوه ويغربوه واماخذونه هدمه ونفوره وكل هذا القدره ثمانون ألفه حفرته
 حديره وراهم سلبهم الجمله ونفوره وهاك العدمه يسكنوه ويغربوه واماخذونه هدمه ونفوره وكل هذا القدره ثمانون ألفه حفرته
 ياهل العدمه بالذبح ثمانون ألفه حفرته وهاك العدمه يسكنوه ويغربوه واماخذونه هدمه ونفوره وكل هذا القدره ثمانون ألفه حفرته
 قروها وانه يلو طرا لطفوا العدمه في الجمل المذكوره وهدنه وهاك القدره ثمانون ألفه حفرته وهاك العدمه يسكنوه ويغربوه واماخذونه هدمه ونفوره وكل هذا القدره ثمانون ألفه حفرته
 منهم قضي عليه بعينه ورضع حكوت خفاضه واما وشا هبت مشع الجسم وضبط اليهود المذكوره انه هو معجوده بمكافئه شتم معمره وراهم
 بالخميره على هذه القدره ثمانون ألفه حفرته وهاك العدمه يسكنوه ويغربوه واماخذونه هدمه ونفوره وكل هذا القدره ثمانون ألفه حفرته
 باذله الحلب والادناه فينقلوا جميع اليهود الى الدوله المذكوره وهاك العدمه يسكنوه ويغربوه واماخذونه هدمه ونفوره وكل هذا القدره ثمانون ألفه حفرته
 انهم معجود بنفوسهم لاهل القلا يسكنوه في جميع حفرته ثمانون ألفه حفرته وهاك العدمه يسكنوه ويغربوه واماخذونه هدمه ونفوره وكل هذا القدره ثمانون ألفه حفرته
 خفوا القدره ثمانون ألفه حفرته وهاك العدمه يسكنوه ويغربوه واماخذونه هدمه ونفوره وكل هذا القدره ثمانون ألفه حفرته
 واطلوا على قراهم وهاك العدمه يسكنوه ويغربوه واماخذونه هدمه ونفوره وكل هذا القدره ثمانون ألفه حفرته



مرثية رقم (22): عرض حال للصدر الأعظم من قرية زرنوقة قضاء الرملة

وجملة من القرى المجاورة يشكون فيها جرائم حراس القولايات اليهودية، يوفال بن باسات، 2014.⁶⁴

عادةً ما يتمُّ التركيز على البعد الاستراتيجي والسياسي في اللقاء بين المشروع الصهيوني في فلسطين ومصالح الإمبريالية البريطانية المتمثِّل بوعد بلفور، ويتمُّ إهمال اللقاء الاستعماري على المستوى اليومي على الأرض والعلاقات العينية الشخصية التي نشأت بين الجنود الغزاة والغزاة المستوطنين. والمسألة الأخرى ذات الأهمية في بناء الإطار التحليلي لهذه الدراسة، تتمثِّل في التحرر من اختزال رؤية الحرب العظمى في فلسطين وبحثها بصفقتها صداماً بين إمبراطوريات، كما تُؤطَّر عادةً على أرض فلسطين، ومن ثمَّ التركيز أساساً على العمليات العسكرية النظامية بين الجيوش المتحاربة العثمانيين والألمان والنمساويين من جهة وجنود الإمبراطورية البريطانية من جهة أخرى. في هذا السياق، يتمُّ إغفال البعد الاستعماري لهذه الحرب من حيث علاقتها بأهل البلاد، هذه "العلاقة" التي شملت القتل والتهجير والاضبط والمراقبة لأهل البلاد وإخضاعهم للعمليات الشُّرطية الاستعمارية (colonial policing)، هذه العمليات التي شكَّلت الممارسة المهيمنة للجيش البريطاني كجيش إمبريالي انهزمك لمئات السنوات في مهام قمع أهل البلاد سكان المستعمرات. فالحرب العظمى كانت حدثاً شاداً في التاريخ الإمبريالي للجيش البريطاني من حيث كون وظيفته التاريخية تشكَّلت أساساً كجيش إمبريالي محترف للعمليات الشُّرطية الاستعمارية،⁶⁵ قبل اندلاع الحرب في العام 1914. لم يتوقَّف الجيش البريطاني الإمبريالي عن الممارسات الشُّرطية الاستعمارية القمعية خلال الحرب بموازاة عملياته العسكرية، وجرّت عملية منظَّمة للتعتيم عليها، إذ كانت تشكِّل خطراً على الاستراتيجية البريطانية القائمة على التحالف مع بعض العرب ضد العثمانيين، وتتناقض مع الدعاية البريطانية التي رسمت صورة لنفسها بصفقتها جيشاً لتحرير أهل البلاد من الاستبداد والتخلف العثمانيين.

أما المسألة الأخرى المتعلِّقة بالسبب الذي تعود إليه أساساً معرفتنا بالمجزرة من الأرشيف الاستعماري، فهي الصورة التي تمَّ تأطير هذه المجزرة بها، بصفقتها مجزرة نفذها شرذمة من الجنود النيوزلنديين والأستراليين، المتمرِّدين على أوامر القيادة العليا والقانون الأخلاقي للإمبراطورية باستهدافهم المدنيين العزَّل، وإن لم تتمَّ محاكمة أحد من الجنود عليها

بصفتها جريمة حرب بدعوى تقنية قانونية، ألا وهي وقوعها بعد انتهاء العمليات العسكرية. والحقيقة أن التنكيل والقتل والاتجاه العدائي ضدّ العرب في فلسطين كان التوجّه السائد بين الجنود البريطانيين من الجنسيات كلّها، وما جرى تصويره كحالة شاذّة، وبوصفه جرماً ونقضاً للشرف العسكري في مذبحة صرفند الخراب، كان في حقيقته جزءاً من هذا الاتجاه. فقد تلقّى الجنود ذاتهم الذين "عوقبوا" بالتسريح والنقل إلى مصر أوامر رسمية من القيادة العسكرية العليا بممارسة الفظائع ذاتها في عمليات قمع الثورة المصرية 1919.

ولذا، يبدو واضحاً بأن الموقف الغاضب الذي تنقله الأدبيات الإمبريالية كلّها عن اللّني، الذي وصف جنود "الأنزاك" بالقتلة وأنه لم يعد فخوراً بهم، إنما كان مردّه إلى تخوّفه، بصفته القائد الأعلى للجيش والمسؤول عن تنفيذ الاستراتيجية البريطانية في فلسطين والمنطقة العربية خلال الحرب العظمى، من تبعات ذيوع خبر المجزرة على الاستراتيجية التي كان يجري تنفيذها في سياق مرّكب من تضارب الوعود الإمبريالية للعرب والصهاينة والامتعاض العربي من صدور وعد بلفور، وفي الوقت ذاته التخوف من استغلال فرنسا للحدث في تأليب العرب ضدّ بريطانيا. ومن هنا، يمكن فهم معاودة اللّني لاحقاً الإشادة بجنود "الأنزاك" بعد أن تحقّق لبريطانيا الاستقرار في المنطقة.

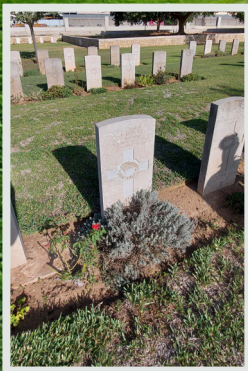
التقيتُ بمجزرة صرفند الخراب خلال بحثي ودراستي لسير العمليات العسكرية في الحرب العالمية الأولى في فلسطين، مع العلم بأن المجزرة وقعت بعد وقف العمليات العسكرية بحوالي شهر من الزمن. ومن ثمّ، شرعتُ بجمع ما توفّر من المصادر عنها: المصادر الأولية، والتي تتضمّن التاريخ الشفوي لأهل صرفند الخراب، والأرشيفات والشهادات الإمبريالية البريطانية والأسترالية والنيوزلندية، والمذكرات والشهادات الصهيونية والصور الجوية والخرائط، بالإضافة إلى مجموعة من المصادر الثانوية، وأخيراً التجوال الميداني في جغرافيا المجزرة في قرية صرفند الخراب التي طُمست معالمها بالكامل. يدور هذا القسم حول المجزرة التي كان ضحاياها أهالي قرية صرفند الخراب، غير أن المفارقة تكمن في أن دراستها شكّلت أيضاً فرصة نادرة لرؤية أهل البلاد في فلسطين كفاعلين تاريخيين مقاومين في أحداث

الحرب العظمى، وليسوا فقط ضحايا الحرب أو أحد مكُونات البيئة الحربية، هذه الفاعلية التاريخية المغيَّبة أيضاً في البحث التاريخي الفلسطيني.

تُطلُّ إشكالية المصادر التاريخية وغلبة الأرشيف الاستعماري بكلِّ ثقلها في كتابة تاريخ مجزرة صرفند الخراب التي تنتمي أحداثها إلى الحرب العالمية الأولى، حيث تصبح مسألة المصادر والأرشيف أكثر تعقيداً وصعوبة بسبب غلبتها. وأما مصادر أهل البلاد، فتتكوّن أساساً من روايات لأشخاص لم يعاصروها، سوى شهادة مدوّنة واحدة أرسلت لأكرم زعتر بناء على طلبه في الثلاثينيات قدّمها أحد الناجين من المجزرة.

5.1 المقبرة كمنهجية في كتابة تاريخ المجزرة

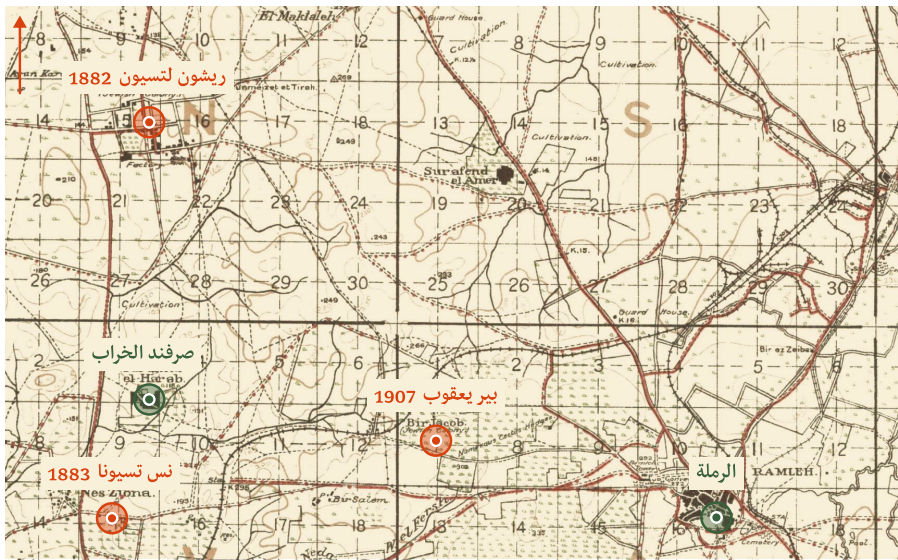
أنطلق في هذه الدراسة من أن كتابة تاريخ المجزرة هو استمرار لأحداثها ووقائعها لا تعقيباً عليها، ولعل التجسيد المادي الأكثر تعبيراً عن هذه المقولة هو حال مقبرة صرفند الخراب. فقد بدأتُ رحلة تقصي أثر المجزرة من نهايتها، أي من المقبرة، حيث مستودع أسرارها الحقيقي لا الأرشيف، ومن المقبرة العسكرية البريطانية في الرملة حيث يوجد قبر الجندي لسلي لوري الذي تقول الرواية الاستعمارية إن مقتله على أيدي العرب قرب صرفند الخراب هو دافع المجزرة. تنتصب على قبر لسلي شاهدة وخريطة تدلّان عليه، وتُقام طقوس لإحياء ذكره كل عام. في المقابل، طمس الصهاينة جميع معالم مقبرة صرفند حيث دُفن شهداء مجزرتها كليةً، وتجمّم قبورها تحت حديقة وادعة تزفّق فيها الطيور على بساط من النجيل يانع الخضرة وأشجار الزيتون حديثة العهد من صنف "برنيّع" الصهيوني (الذي هندسه جينياً شمعون ليفي من صنف سرقة من واحة عين القديرات في سيناء أثناء احتلالها)، وأسموها "بستان مرجليون"، نسبة إلى الصهيوني الإرهابي إلعازير مرجليون، المستوطن في مستعمرة "رحوفوت" والقائد في فرقة الأنزاك ولاحقاً القائد الأعلى للفيلق العبري، وباسمه سميَّ حيُّ "ياد إلعازر" في مستعمرة "نيس تسيونا" المقام على جذر قرية صرفند الخراب. ليس قبر لسلي لوري وحده هو الحاضر من أثر المجزرة، وإنما يوجد أيضاً نصبان تذكاريّان لقتلى الجنود "الأنزاك" على أرض صرفند الخراب.



مرثية رقم (23): مقبرة صر فند الخراب، قبر الجندي "لسلي لوري" في مقبرة

الرملة العسكرية البريطانية، تصوير المؤلف، 2022.

في ذلك الصباح التشريني الذي زرتُ فيه المقبرة-الحديقة للمرّة الثانية، سألتُ نفسي كيف سأكتب تاريخ المجزرة من هنا... من المقبرة: المكان والزمان والمنهجية؟ تخيلتُ الجثث الممزقة والمحروقة تحت الغطاء الأخضر، وتأملتُ لبابيب أغصان الزيتون الخضراء الممزقة التي تشرب عصير الجثث (كم ظهرت لي شجرة الزيتون رمز السلام متوحشة "زومبية!"). هنا الحقيقة تغدّي الزيف ليُظهر الحقيقة، وهنا لا تعدُّ ثنائية الأرشيف – الرواية الشفوية ذات معنى، إذ المعنى هو ما ينمو في الكتابة بلا وجل... تخيلتُ يوماً يعود فيه أهل صرفند الخراب إليها، ربما يجرفون الغطاء الأخضر ليصلوا إلى قبور أسلافهم ويستأنفوا طقوسهم في زيارة الموتى، وربما يبقى البستان على حاله ويقطفون ثماره ويعصرون زيتهم الممزوج بنسج أسلافهم ويغمسون به الزعتر. قلتُ في ذاتي: هذا أيضاً استئناف لحياة الأسلاف، فكل ما ينتمي إلى العالم التحتيّ يجد طريقه بطريقة ما إلى العالم العلويّ... فدع عنك الوجل، واكتب المجزرة بمنهجية المقبرة.



مرثية رقم (24): قرية صرفند الخراب والمستعمرات المحيطة بها، قُمت بتحديثها على خريطة المسح الميداني في فيلق المهندسين الملكيين في الجيش البريطاني، المكتبة الوطنية الأسترالية، 1919.

5.2 القرية: صرفند الخراب التاريخ والموقع

تقع قرية صرفند الخراب (صرفند الصغرى) وسط سهل فلسطين الساحلي الأوسط، على بعد 7 كيلومترات غربي مدينة الرملة. نشأت القرية على الجانب الجنوبي لتلال الكركار، المكوّنة من صخور ذات أصل رملي متحجرة، وترتفع 50 متراً عن سطح البحر على الطريق السلطاني (يافا - غزة - بئر السبع)، وغير بعيدة عن الطريق الواصل بين طريقي يافا-الرملة ويافا-غزة، المتّجه نحو النبي روبين، موقع أحد المواسم الشعبية الرئيسية في فلسطين ما قبل النكبة على شاطئ المتوسط. والتربة الغالبة على أراضي صرفند هي التربة الحمراء الرملية (الحمراء لاحتوائها على أكسيد الحديد)، الخصبة وجيدة التصريف ذات المنشأ الكركاري (تلال الكركار) التي تنتشر في أراضي القرية. وتقع القرية فوق حوض الساحل الفلسطيني للمياه الجوفية، حيث يسهل الوصول إلى المياه الجوفية حفراً، ولهذا كثرت آبارها وبياراتها وانتشرت زراعة الحمضيات التي كانت تُصدّر عبر ميناء يافا الذي يبعد عنها حوالي 15 كم إلى الشمال الغربي.

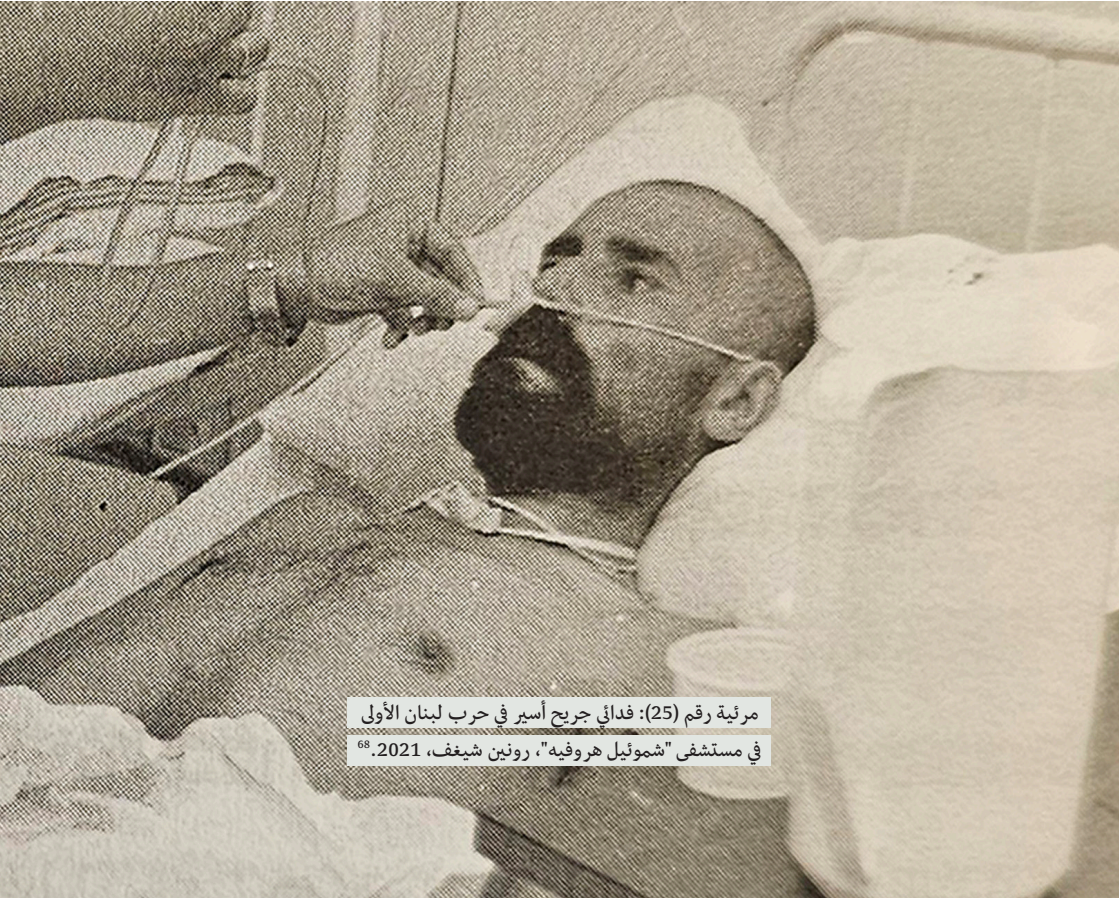
كانت القرية، حتى تهجيرها في شهر نيسان 1948، محاطة بالمستعمرات الصهيونية (الكوبانيات)، وتداخلت أراضيها الزراعية معها من الشمال في إبان الحرب العالمية الأولى، وهي: عيون قارة (ريشون لتسيون) من الشمال، ومن الشرق خربة بيار الليمون (بئر يعقوب)، ومن الغرب وادي حنين (نس تسيونا)، ومن الجنوب ديران (رُوحوفوت). وبحسب الإحصاء البريطاني للعام 1922، بلغ عدد سكان قرية صرفند الخراب 385 نسمة.⁶⁶

5.3 "البوبرية" وبير الغارب

نشأ جذر القرية حول بناء قديم ذي أقبية "كبير كُفري" (أي روماني من زمن الكُفّار في لسان القرويين في فلسطين)، ويتكوّن البناء من عقدين أسطوانيين، تبلغ أبعاد كل منهما 12×7 متراً بحسب مسح أثري بريطاني في العام 1943.⁶⁷ وتوجد في الجهة الجنوبية من العقود بئر

الغارِب (والغارِب من الماء أعاليه)، وهي بئر كبيرة يلاصقها خزان مقصور بالإسمنت. ويُقال في التاريخ الشفوي الصرْفندي إن من يشرب من ماء "بئر الغارِب" يكتسب القوة، وكانت عائلات القرية كلّها تشرب منه.

وفي مجزرة القرية، ألقى جنود الإمبراطورية جثث الشهداء في البئر قبل إخراجهم ودفنهم من قبل أهالي القرية، وبقيت البئر عامرة حتى الثمانينيات، ومن ثم رُدمت ولم يبقَ من أثرها شيء، وذلك على إثر تلوث مياهها بمرض جرثومي وصلها من مستشفى "شموئيل هروفيه"، القريب منها بفعل الفيضانات في المنطقة. ومما يجدر ذكره أن هذا هو المستشفى الذي نُقل إليه الأسرى الجرحى في حرب أكتوبر وحرب لبنان الأولى.



مرثية رقم (25): فدائي جريح أسير في حرب لبنان الأولى

في مستشفى "شموئيل هروفيه"، رونين شيفغ، 2021.⁶⁸

يُسَمَّى أهل صرفند الخراب هذا البناء "الكُفري" بـ "البوبرية"، وهي تسمية تعود للفترة الصليبية، وقد توسَّعت القرية حوله نحو الغرب والجنوب. ويُعتقد بأن هذا البناء الصليبي قد بُني على أنقاض بناء قديم يعود إلى الفترة البيزنطية، ومن ثمَّ الإسلامية، وذلك بحسب ما تُنبئ به الحفريات الأثرية التي كشفت عن آثار ولقى بيزنطية وأخرى تعود إلى العهد الإسلامي المبكر. وقد انتشرت في الفترة الصليبية عدة مبانٍ في بلادنا فلسطين تسمى "البوفرية" أو "البوبرية"، وهي كلمة ذات أصل لاتيني (Bovaria) تعني المزرعة أو سوق الماشية.⁶⁹ وتوجد في فلسطين عشرة مواقع ومبانٍ تحمل اسم "البوفرية" يقع جلُّها في جذر القرى، نذكر منها: بوبريات يازور وجفنة والطيبة وخربة التنور والزبادة وفحمة.

وعلى الأرجح فإن المسح البريطاني، آنف الذكر، للبوبرية يصف ما ظهر من البناء، ويورد بأنه احتوى على سرداب طويل تحت الأرض. وفي زيارته للقرية في العام 1873،⁷⁰ يقول المستشرق وعالم الآثار تشارلز كليرمونت جانيو: إن البوبرية كانت جزءاً من مكوّنات الخربة، وإن القرويين يطلقون أسماء عدّة على مختلف أجزاء البوبرية، مثل: البوبرية والحبس وطاحونة الهوا، كما ينقل عن أهلها بأن مسمّى القرية بالخراب يعود إلى عهد إبراهيم باشا.

وبحسب الحفريات الأثرية التي قامت بها سلطة الآثار الصهيونية خلال بناء وتوسعة حيّ "يد إلعزر"، الذي أقيم فوق جذر القرية القديم، تمَّ الكشف عن بقايا مبنى يقع في الشمال الشرقي من مقبرة القرية، وعلى الأرجح هو ما تبقى من مبنى البوبرية. وفيما يتعلّق بمسمّى القرية (صرفند)، فقد تمَّ العثور في الطبقة الأثرية التي تعود إلى الفترة الإسلامية المبكّرة في فلسطين،⁷¹ على بقايا كثيرة لمخلفات صهر المعادن (خبث المعادن)، ما يدلُّ على أن القرية قامت على موقع نشط لصهر المعادن من الفترة البيزنطية واستمر في الفترة الإسلامية المبكّرة. هذا بالإضافة إلى العثور على عدة أوزان بعضها مدموغ بالعربية، الأمر الذي يدلُّ أيضاً على أن القرية كانت سوقاً نشطة خلال هذه الفترة. ويصف الحاج يوسف إبراهيم، من مهجّري القرية،⁷² البوبرية بأنها عقد

قديم "كُفري"، يحتوي على سرداب طويل بنته الأقوام البائدة للاحتماء من "ريح صرصر" (في القرآن الكريم: وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، الحاقة: 6).



مرثية رقم (26): قرية صرفند الخراب ما بين العامين 1918-1919، أرشيف مكتبة ماستيرتون اللوائية- نيوزيلندا.⁷³

أُجريت تجوالاً مسحياً في العام 2022 أكثر من مرّة في موقع القرية، ولم أَعثر على أيّ بقايا لـ"البوبرية"، والتي على الأرجح تَمّ تدميرها بشكل كامل خلال احتلال القرية وإقامة بيوت مؤقتة من الصفيح للمستوطنين الجدد في موقعها ومحيطها بعد احتلالها حتى بداية الخمسينيات، قبل أن يتم نقل المستوطنين إلى مساكن دائمة، مع العلم أن قسماً من المستوطنين الصهاينة سكنوا في بيوت القرية قبل هدمها هي الأخرى ولم يتبق منها سوى ثلاثة بيوت. أما اسم القرية، فقد عُرفت صرفند الخراب كما استقرّ عليه اسمها بعدة أسماء أخرى، منها: صرفند

الغربية، وصرفند الجديدة، وصرفند الصغرى في مقابل صرفند الكبرى (صرفند العمار).

فَحِيرْلُكْدُ				
نفس لد قصبه سي				
مخانه	اسلام م	يوم	مساجد	كنيسة
خان	فريت	دكان	حمام	معصره
صابونخانه	مكتب	شاكردان	مكتب	شاكردانغ
قرية يارور	قرية يي حين	قرية ساقويد	قرية كفرعانا	قرية نينا
قرية يهوديه	قرية دانيال	قرية غابا	قرية بزامنين	قرية جدماس
قرية ضينا	قرية صرفند الجار	قرية صرفند الجار	قرية طيره	قرية دير طريف
قرية بيت نالا	قرية مزيرع	قرية قوله	يكون عند قوله	عند خانه

وفي بلادنا فلسطين، هنالك ثلاث قرى تحمل اسم صرفند: الأولى صرفند قضاء حيفا، والثانية صرفند العمار أو الكبرى، والثالثة صرفند الخراب (أو صرفند الصغرى). وعلى الأرجح أن الاسم (صرفند) جاءها من صرف المعادن، أي صهرها، ومن ضمنها مكان سلّ العملة. ويتفق أهل صرفند على كونها سوق صرف النقود، أي مكان سلّها. وأما صفة الخراب، فإن ما تنقله الوثائق العثمانية تؤكد أن صفة الخراب في اسم القرية سابقة على حادثة حرقها من قبل الإنجليز، موضوع هذه الدراسة، كما تثبتته خطأ العديد من الكتابات حول القرية، وعلى الأرجح يعود خراب القرية بفعل الغزوات البدوية في القرنين السابع والثامن عشر. ففي سالنامه ولاية الشام 1288 هجرية (العام 1871 ميلادية)، يظهر اسم القرية صرفند الخراب في ناحية اللد، وغير ذلك من المصادر، ما يذكّر بأن حالتها تتشابه مع مواقع أضيف إلى اسمها "الخراب" في قرى فلسطين، نحو: زيتا الخراب (قضاء الخليل) وعراق الخراب (قضاء المجدل). وهي بهذا تعني المنطقة التي خربت بعد هجرها من قبل أهلها وانتقلهم إلى موقع قريب عمّروه واحتفظوا بالاسم القديم. وأما عن إعمار صرفند الخراب، فالقرية كانت خربة مهجورة لا بناء فيها سوى عقد "البوبرية" وبئر مياه مجاور هاجر إليها حمدان الشايب وإبراهيم الشايب، جدّا عائليّ حمدان وإبراهيم قادمين من عبوين قضاء رام الله على إثر هجوم غادر من قبل آل سحويل، بعد أن استنجد بهم آل مزاحم في صراعهم مع آل إبراهيم، وبقوا فيها حتى النكبة وعاد بعضهم إلى عبوين على إثر التهجير،⁷⁵ كما تتفق عليه مقابلات التاريخ الشفوي لأبناء القرية. ولا يمكننا الجزم، في هذا المقام، بأن الفارين من بطش آل سحويل اختاروا القرية بمحض إرادتهم أم أنّ السلطات العثمانية أسكنتهم فيها، إذ من المعروف أن السلطات العثمانية كانت تستغلّ الصراعات في إعمار القرى المهجورة والخرب البائدة بنقل أحد أطراف الصراع إليها.⁷⁶

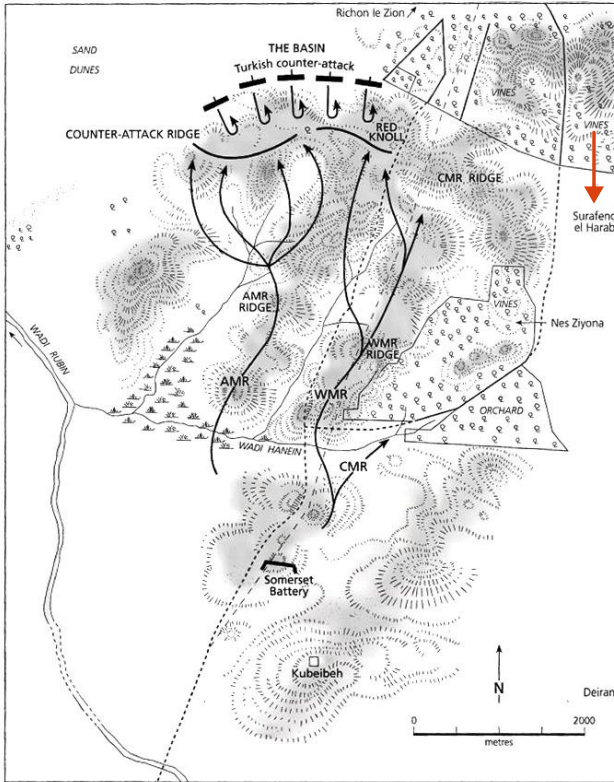
5.4 الحرب العالمية الأولى في فلسطين:

العمليات العسكرية في قطاع صرفندالخراب حتى هدنة مودروس الموقعة في 30 أكتوبر 1918

بعد أن نجحت القوات البريطانية في كسر خط الدفاع العثماني غزة-بئر السبع ضمن ما عرف بمعركة غزة الثالثة (31 تشرين الأول 1917)، والتي أصدرت على وقعها وزارة الحرب البريطانية وعد بلفور وأُعلن عنه في 2 تشرين الثاني 1917، بدأت المرحلة التي يُطلق عليها في التاريخ العسكري البريطاني للحرب العظمى في فلسطين اسم "مطاردة سهل فلسطين"، السهل الساحلي الفلسطيني، للقوات العثمانية المنسحبة شمالاً. وفي 14 تشرين الثاني 1917، خاضت القوات العثمانية المتخذقة على تلال الكركار، غرب وشمال-غرب قرية صرفندالخراب، معركة ضارية مع رأس حربة القوات البريطانية قوات الخيالة النيوزلندية في معركة عيون قارة، وكانت هذه المعركة بمثابة المحاولة المستميتة الأخيرة للقوات العثمانية للدفاع عن خط الدفاع الثاني (القدس-الرملة-يافا) بعد كسر خط الدفاع الأول (بئر السبع-غزة).

تكوّنت القوات النيوزلندية من ثلاثة أفواج للخيالة، وهي "أوكلاند" و"كانتري" و"ولنغتون"، بالإضافة إلى سرب المدافع الرشاشة الأول. استمرت المعركة حتى المساء، وقاتل فيها الطرفان بضراوة، وانتهت بانسحاب الجيش العثماني لتأسيس خط الدفاع الثالث، ما عُرف باسم خط العوجتين (نهر العوجا شمال يافا غرباً - والعوجا قضاء أريحا شرقاً). وعلى تلال صرفندالخراب، كان تحقيق النصر على القوات العثمانية مكلفاً للقوات النيوزلندية، التي وصلت خسائرها نحو 50 قتيلًا، وهي الخسارة الأكبر في معركة واحدة لهذه القوات في عملياتها العسكرية كلّها في حرب فلسطين،⁷⁷ والتي استمرت حتى شهر أيلول 1918 وانتهت بالهجوم البريطاني الكاسح المعروف بريطانيًا بمعركة مجدو والمعروف عثمانيًا بمعركة نابلس. وفي 30 تشرين الأول 1918، وُقِّعت اتفاقية في ميناء مودروس اليوناني لوقف إطلاق النار، وبهذا انتهت العمليات العسكرية في فلسطين، وعلى الجبهة الشرقية عمومًا، بهزيمة

الدولة العثمانية. ومن ثم أُخضعت كامل أراضي متصرفية القدس وسنجقي عكا ونابلس بحسب التقسيم الإداري العثماني لـ"إدارة أراضي العدو المحتلة-لواء الجنوب" (Occupied Enemy Territory Administration- South) فلسطين الانتدابية. وقد استحدثت هذه الإدارة العسكرية، التي أسسها أُلنبي في نيسان 1918 لـ"إدارة أراضي العدو المحتلة" (OETA -SOUTH)، في العام 1918، وتولّى قيادتها اللواء آرثر ويغرام موني حتى عزله عن منصبه في حزيران 1919، بعد احتجاج من حايم وايزمن بزعم بأنّ مواقفه "غير مؤيدة" للصهيونية.⁷⁸

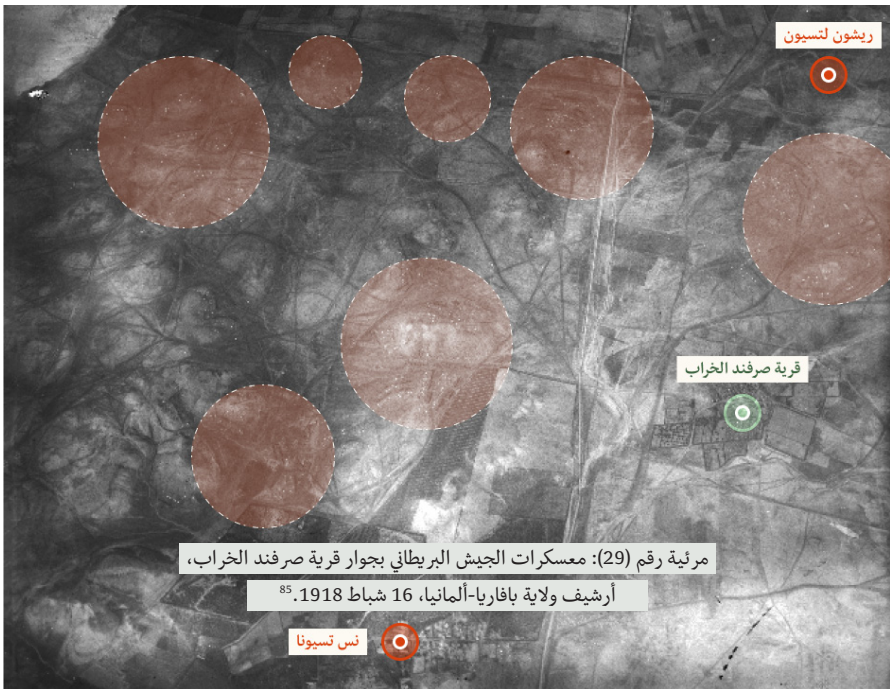


⁷⁹ مرثية رقم (28): خريطة عسكرية نيوزيلندية لمعركة عيون قارة، تيري كينلوخ، 2016.

وفي سياق التحوُّلات التي سبقت مجزرة صرفند الخراب، حدثت انعطافة في النشاط الصهيوني بعد أن افتتحت اللجنة الصهيونية برئاسة حاييم وايزمن مكتب اللجنة اليهودية في يافا مطلع العام 1918، ونظَّمت في تشرين الثاني مسيرةً احتفالية في القدس بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لوعد بلفور رافعة الأعلام الصهيونية بشكل علني للمرة الأولى.⁸⁰ وفي هذه المسيرة، 2 تشرين الثاني 1918، حدث الصدام الأول بين الفلسطينيين والصهيانية تحت الحكم البريطاني العسكري في تلك الفترة، حيث نظَّم الفلسطينيون مسيرة مضاةً تحوَّلت إلى اشتباكات عنيفة في باب الخليل،⁸¹ في الوقت الذي بدأت فيه حالة الغليان بين الفلسطينيين تصل إلى نقطة قياسية بسبب معاينتهم النشاط الصهيوني المحموم ووصولهم إلى قناعة أن الإنجليز يقومون بخطى حثيثة لتحويل وعد بلفور إلى واقع على الأرض. وفي مراسلات جنرال كلايتون في 18 تشرين الثاني 1918، تشير التقارير الاستخباراتية البريطانية إلى أن التأييد الذي تمتَّع به الإنجليز بين الفلسطينيين خلال العمليات العسكرية، بحسب تقدير هذه التقارير، قد انقلب إلى حالة حقن، وأن عرب فلسطين يعارضون الصهيانية بشدة ويرتابون من مخططاتهم،⁸² على الرغم من أن السياسة العامة التي أعلنتها الإدارة العسكرية هي "الحفاظ على الوضع القائم." في المقابل، كانت هذه السياسة سبباً لنشوء التوترات بين قادة اللجنة الصهيونية والإدارة العسكرية، حيث رأت اللجنة الصهيونية بأن الإدارة العسكرية لا تقوم بتطبيق السياسة الرسمية لبريطانيا الخاصة بفلسطين والتي حدَّدها وعد بلفور. وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى سيل الهجرة الصهيونية إلى فلسطين في هذه الفترة، فقد أمكن ملاحظة الأعداد الكبيرة للمستوطنين الجدد كما يشير محضر اجتماع اللجنة الشرقية-الشرق الأوسط في الإمبراطورية البريطانية مبكراً، بتاريخ 5 كانون الأول 1918.⁸³

وفي 30 أيار 1918، كتب وايزمان لبلفور رسالة ينقل فيها وصفاً للحالة في فلسطين من "موقع المسؤولية" محرّضاً على استمرار العمليات القتالية التي كانت تمرُّ بمرحلة جمود وقتها قبل استئناف العمليات القتالية. وفي رسالة أخرى في شهر أيلول 1918 يحذّر فيها من التبعات السلبية لهذه الحالة على هيبة بريطانيا بين "العرب الذين يعبدون القوة"، مذكراً إياه بالطبيعة الغادرة للعرب.⁸⁴

وقعت مجزرة صرفند الخراب خلال مرحلة انتظار وتحضير القوات لتسريحها، مع تحوّل معسكرات القوات البريطانية إلى مراكز للنشاطات الثقيفية التعليمية تحضيراً لعودتهم إلى بلادهم عبر الموانئ المصرية من حيث قدمت إلى فلسطين. حُلّت المجزرة في 10 كانون الأول 1918، أي بعد توقيع اتفاقية مودروس لوقف الأعمال القتالية بين الدولة العثمانية وقوات الحلفاء في 30 تشرين الأول 1918، وسريانها ظهيرة اليوم التالي. في ذلك الوقت، كانت معسكرات قوات "الأنزاك" تتواجد في منطقة عيون قارة بقيادة الجنرال رايري في مستوطنة "نس تسيونا" (وادي حنين) وقيادتها العليا في مستوطنة "رحوفوت" (ديران). وكانت هذه المعسكرات تمتدّ من مستعمرة "ريشون لتسيون" (عيون قارة) شمالاً حتى مستعمرة بئر يعقوب (بئر سالم) جنوباً [بيار الليمون] حيث استخدم ألنبي مباني المستعمرة الألمانية "شبون" مقرّاً لقيادته. وتحيط هذه المعسكرات بقرية صرفند الخراب من الجهتين الشمالية والشرقية، بالإضافة إلى التلال الغربية المتاخمة لمستعمرة "نس تسيونا" (وادي حنين).





مرثية رقم (30): بيوت مستعمرة "نس تسيونا" ومعسكر لجنود "الأزناك"،

وفي الأفق البعيد قرية صرفند الخراب، متحف الذاكرة الحربية-أستراليا، 1918. ⁸⁶

5.5 الليلة اللبلاء: وقائع المجزرة

5.5.1 مجزرة صرفند الخراب 1918 في التاريخ والوعي الصرفندي

تتألف مصادر رواية أهالي قرية صرفند الخراب لوقائع المجزرة التي تمكّنت من جمعها من مقابلات التاريخ الشفوي والمقالات المنشورة على موقع فلسطين في الذاكرة، بالإضافة إلى بعض المقابلات المصوّرة على مواقع التواصل الاجتماعي، ورسالة خطيّة موجهة إلى أكرم زعيتر من أحد أهالي القرية، إلى جانب روايات مهجري قرية صرفند العمار، والتي يأتون فيها على ذكر المجزرة في معرض السؤال عن سبب تسمية القرية بالخراب أساساً.



مرثية رقم (31): صورة الحاج يوسف إبراهيم رحمه الله من مهجري قرية صرفند الخراب، فلسطين في الذاكرة، 2008.

يقول الحاج يوسف إبراهيم، من مهجّري القرية ومن مواليد العام 1928، في مقابلة التاريخ الشفوي على موقع فلسطين في الذاكرة، أُجريت معه في ناعور في الأردن في العام 2008،⁸⁷ إن المجزرة: "في صرفند سببها جماعة غزوا المعسكر تبع (التابع لـ) الجيش وأخذوا النقود تبع الجيش من خيمة كانت موجودة للجيش وكان فيها ضابط بريطاني. بعد فترة قاموا على صرفند وغزوها الجيش البريطاني، وحرّقوا البلد في الليل بعد الساعة 12 - 1، راح فيها حوالي 18 شخص". وفي موقع آخر من المقابلة ذاتها يقول إن "18 بيت تم حرقها... ولّعوا النار والناس نائمة... وبعد فترة من الزمن نمت صرفند وسميت صرفند الزاهرة."

وفي مقابلة ثانية مع السيد محمد حسن إبراهيم، من مهجّري القرية ومن مواليد العام 1930، أُجريت في العام 2005،⁸⁸ يصف وقائع المجزرة وفق التسلسل التالي: "أول دخول الإنجليز سنة 1917، الإنجليز عسكروا في أراضي البلد، أجا واحد حرامي بده يسرق من المعسكر وصحي عليه الضابط وقتل الضابط وعبر على البلد... قصّوا الأثر لقوا الأثر خاشش [داخل] على البلد، طوّقوا البلد ثلاثة أطواق: مشاة وخيل ومشاة. صار اللي يعبر يخلّوه يعبر، واللي يطلع ما يخلّوه يطلع، وصاروا يقتلوا في الناس... كانت بيوت الناس قش، وولّعوا النار في قش لبيوت... اللي يهرب يستنّوه على الباب، اللي يهرب من النار يقتلوه... قتلوا 17 واحد، وجمعوا أهل البلد الحريم على جال [جهة] أخذوهم كان جنب البلد شبه مستعمرة لواحد اسمه "شبون" ألماني، كانت قيادة البلد إنجليزية. اللي حرقوا البلد أسترالية، راحوا البلد على المعسكر على قيادة الجيش وطلبوا منهم وقف المجزرة ورجعت البلد..."

روايات عدة على موقع القرية في فلسطين في الذاكرة تتفق على القول: إن جنوداً فرسان إنجليز استقروا أهالي القرية، فقام الثوار بقتل أحد الجنود، وبعدها قام الجيش البريطاني بعملية انتقامية في القرية محضرين معهم صهريج بنزين وحرّقوا بيوت القرية، وقتلوا من يحاول الهروب من النيران بالبلطات، فقتل حوالي أربعين... وأصبح أهالي قرية صرفند الخراب أول لاجئين في فلسطين، وقد عاد أبناء القرية إلى قريتهم بعد مفاوضات بين روسيا وبريطانيا من أجل إعمار البلدة، وفعلاً قامت روسيا بتقديم تبرّعات وحصلت على إذن من

بريطانيا لإعمار القرية وإعادة أهلها المهجّرين، وعادوا فعلاً باستثناء عدد قليل كان قد ربّ أموره في المدن المجاورة وبقي مقيماً فيها.⁸⁹

وفي شهادة ثالثة ينقلها علي محمد إبراهيم،⁹⁰ أحد مهجّري القرية عن جدّته التي عايشَت المجزرة، يقول: إن مجموعة من الجنود قادمين من معسكر "شبون" تحرّشوا بنساء القرية في طريقهنّ إلى أحد آبار القرية، ومن ثمّ فرع شباب القرية وضربوا جندي ضرباً مبرحاً وتم نقله إلى المشفى. ومن ثمّ هاجم جنود بريطانيون من جنسيات مختلفة القرية، نيوزلنديون وأسكتلنديون وبريطانيون، وقاموا بحملة تفتيش عن الشبّان الذين ضربوا الجندي. وبعد ثلاثة أيام، كان أهل القرية وخاصة شبابها يعملون خارج القرية وقد انتظر الجيش البريطاني حتى ساعات ما بعد العصر وقاموا بإخراج النساء من البيوت وإحراق البيوت، وقتلوا ثمانية عشر شخصاً من أبناء القرية من ضمنهم شقيق جدّي لوالدي علي ذيب خليل إبراهيم، ومعه من الذين عرفتهم فوزي يعقوب درويش إبراهيم وأحمد محمود عنبر ومحمد رشاد حسين العويني وعلي حسن حسين العويني وداود عنبر ومحمد نصر حمدان وشخص من أبناء عائلة مطر وأحد الضيوف الذي كان ينزل عند أحد أبناء عائلته من عائلة العويني، وكذلك العبد ذيب محمود حمدان وخليل عبد اللطيف حمدان. وأن الجنود البريطانيين قاموا بقتل فوزي يعقوب درويش إبراهيم وفصلوا رأسه عن جثته، وقد عُثر على رأسه في مكان بعيد عن الجثة. وبحسب هذه الشهادة، فإن الجنود الهنود حاولوا التدخّل لوقف الجرائم وإخراج الموتي (من البئر) ودفنهم. وغادر أهالي القرية قريتهم إلى القرى والمدن المجاورة وقد مكثوا ما يزيد عن شهرين أو ثلاثة أشهر خارج القرية.

وفي مقال كتبه علي إبراهيم الصرفندي بعنوان: "محرقة صرفند الخراب"،⁹¹ يقول: صرفند الخراب، قرية صغيرة تقع شمال غرب مدينة الرملة المحتلة في فلسطين، وقعت كما وقعت باقي مدن وقرى فلسطين تحت الاحتلال البريطاني. صرفند الخراب، قصة تعيش في ثنايا الماضي، كنت أعتقد أنه لن يتم نبشها إلى أن تم اختياري لسرد قصة خراب القرية من قبل جنود الاحتلال البريطاني، يقوم على توثيقها مؤسسه صحفية يرأسها شخص نيوزيلاندي

يدعي كريس كوك. وقد أثارت هذه القصة آلام وذكريات الماضي بالرغم من أنني لم أكن موجوداً بعد في هذه الدنيا، ولكن الألم يبدو أنه يتواصل ويورث ولا ينتهي عند مرور بضع سنوات بل قد يتألم الشخص الذي سمع القصة أكثر من أولئك الذين عايشوها، وهذا ما شعرت به بعد فتح أحداث صرفند الخراب التي وقعت في العام 1918، وهي قصة حريق وتدمير القرية من قبل الجيش البريطاني وقتل عدد من خيرة شباب القرية. كان من بينهم شقيق جدِّي لوالدي، والذي حملت اسمه تقديراً لمكانته في قلوب العائلة، والذي لا زلنا نحاول إحياء ذكراه ونحكي قصته لأبنائنا ونطالبهم بأن ينقلوها لأبنائهم وأحفادهم حتى يبقى اسمه خالداً في عقولنا وفي ذاكرتنا الذي لن ننساه. وقد فوجئت بأنه ليس الألم الذي أشعر به مصدره شقيق جدِّي، بل هناك عدد كبير من الذين استشهدوا معه في تلك الأحداث، وأن هناك بيوتاً هدمت وقرية أُحرقت بفعل انتقام من قبل جنود يعتقد أنهم نيوزيلانديون حاقدون. كان انتقاماً بشعاً، إذ لم يكتفوا بقتل ثمانية عشر شاباً مقابل جندي يخدم في الجيش البريطاني، والذي يعتقد أنه نيوزيلاندي، بل قاموا بحرق القرية وتشريد أهلها حيث فرّوا من القرية لينجوا بأرواحهم خوفاً من بطش الجيش الذي جاء لينتقم لجندي تقول الرواية إنه قتل على أيدي بعض شباب القرية بعدما قام بالتحرُّش بفتيات من القرية كنَّ يملأن الماء من بئر ارتوازية. وتشتتوا في القرى والمدن المجاورة وكانوا أول مهاجرين بعد هجرة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة. هذه الأحداث عادت وبقوة تنغص حياتنا، أنا وعائليّ أخذنا نتخيّل كيف كان شعور جدِّي عندما قُتل شقيقه الوحيد وكذلك جدّتي والقتيل ابن عمها شقيق والدها الذي لم تنسه إطلاقاً بل وفي كل أسبوع كانت تحكي لنا كيف قتله الجنود البريطانيون عندما دخلوا إلى منزلنا حيث كان يعيش جدِّي وشقيقه في بيت مشترك، وقد نجا جدِّي إلا أن شقيقه لم ينج... و [نتخيّل] كيف تمَّ إحراق القرية وتشريد أهلها. أخذت أتخيل كيف هرب أهل القرية وتركوا أمواتهم في العراء إلى أن حضر جنود بريطانيون من أصل هندي وكانوا قد عرّفوا على أنفسهم بأنهم "مسلمون"، وقاموا بجمع الجثث ودفنها، وإن إحدى الجثث كان قد فصل الرأس فيها عن الجثة. عندما كنت صغيراً، كنت أعتقد أنها حكاية ترويتها جدّتي لنا من أجل التسلية. لم أكن ألاحظ عينيها التي تغرق بالدموع وهي تروي لنا القصة، ولكن

بعد أن استعدت ذكرياتي وحديث جدّي عرفت كم عانت من الألم والحزن على شقيق جدّي (ابن عمها) وشقيق زوجها والكره الذي كانت تحمله للجيش البريطاني ومن ساعدهم في تدمير القرية وقتل أبنائها... الآن عرفت أن هناك غيرنا من أهالي القتل ما زالوا يتألّمون وما زالوا يروون قصة حريق القرية التي انتقلت إليهم عبر الآباء والأجداد، ولكنهم يتألّمون بصمت. إنني أيضاً تألمت، لأنني كدت أنسى هذه الأحداث، ولم أقم بتوثيقها، وقررت من الآن توثيق هذه الأحداث ليس فقط من أجل أن يعرفها أبنائنا وأحفادنا، ولكن أيضاً من أجل أن يختلط شعوري بالألم والحزن مع ما أكتبه عن قريتنا التي لم تنتهِ آلامها وأحزانها بهذه القصة، وإنما هناك أحداث أخرى كان سببها نكبة العام 1948، وليقرأ أبنائي الحزن في سطور هذه القصة الذي شعرت به أثناء كتابتها.

مع كل تقديري واحترامي للصحفي النيوزيلاندي الذي أراد توثيق هذه القصة، والذي أهدر من الجهد والوقت الكثير لمعرفة الأحداث بشكل صحيح، إلا أنه جاء متأخراً سنوات طويلة، حيث إن أهل القرية أثناء أحداث هذه القصة لم يكونوا على دراية ومعرفة بتوثيق الأحداث ولم يكن فيها حتى من يعرف القراءة والكتابة وقد تناقلوها جيلاً بعد جيل شفاهة. ولم يخطر ببال أحد أن يدوّن أحداث هذه القصة حتى بعد أن أصبح فيها عدد لا بأس به من المثقفين حتى أصبحت مجرد حكاية ترويحها الأم لابنها عند النوم، وحتى أننا فقدنا في مرحلة ما الشعور بالألم على ما أصابنا نتيجة هذه الأحداث. ولكن، كما يبدو، أن الألم يتواصل، ولكنه بحاجة إلى ما يثيره، وقد تشعر به أكثر عندما تكون في داخل الحدث ولو بشكل غير مباشر. هذا ما شعرت به أثناء حديثي مع السيد كوك كريس: شعرت بأنني ما زلت أعيش أحداث هذه القصة وشعرت بالأم عائلتي التي فقدت عدداً من الشهداء. في حينه، أخذتُ أستذكر بكاء ونحيب الأمهات اللواتي فقدن أبنائهن والزوجات اللواتي فقدن أزواجهن. أخذتُ أشعر بالألم الذي عاشه أبناء القرية عندما غادروا القرية لا يلوون على شيء وهم أبناء القرية الفقيرة التي تعيش في ظروف احتلال بريطاني، وكانت الحرب قد وضعت أوزارها، ولا يجدون ما يأكلونه حيث كانوا يعيشون على زراعة الأرض وهي مصدر

رزقهم الوحيد وقد تركوه. أتخيل كيف كان شعور أهل القرية بعد مغادرتها وهم ما زالوا يكون موتاهم وبيوتهم المدمرة، وما هو المستقبل الذي ينتظرهم وهم دون مال أو مأوى. أتخيل حيرتهم وهم لا يجدون ما يسدُّون به رمق أبنائهم وعائلاتهم. أتخيل كيف كان شعورهم وهم لا يستطيعون حتى مقاضاة الجنود الذين قاموا بهذه الجرائم أو مساءلتهم وهم يشاهدونهم صباح مساء. أتخيل كيف أن هناك بشراً ينتقمون بهذه الفظاعة والبشاعة يقتلون ويدمرون ولا يجدون من يقف في وجوههم ليمنعهم أو حتى يعنفهم على فعلهم، لا بل يعتبرون من قاموا بهذه الجرائم أبطالاً وهم ليسوا كذلك. أتخيل كيف أن بريطانيا، وحتى الدول التي انضوت تحت رايتها عند احتلال فلسطين، سكنت عن هذه الجرائم، ولم تؤثّقها، ولم تنشر كلمة واحدة عن أحداث القرية، ولم تقدم أيّ اعتذار لأبناء القرية، وإنما تعاملت مع الحدث كمحتل يرى في هذه الأحداث تأديباً للذين يقعون تحت الاحتلال، وعملية ردع لمن يتجرأ أن يمسّ جنود الاحتلال بسوء.

عندما كنت صغيراً، كنت أخجل عندما يسألني شخص: "من أين أنت؟" أن أقول له من قرية صرفند الخراب، حيث إن هناك قرية أخرى، ليست بعيدة عن قريتنا، تدعى صرفند العمار. ولم أكن أعرف، في حينه، لماذا سمّيت صرفند الخراب، والآن لا أشعر بالفخر فقط لأنني عرفت هذه الأحداث، وحتى أنني أصبحت أعيشها وكأنها حدثت قبل أيام، وإنما أشعر أيضاً بكراهة كل من تسبّب في معاناة قريتنا وأهلها. إنني لم أكن أتصور أن أحداثاً كهذه قد وقعت وعلمت بها القيادة البريطانية ولم يقم أيّ مسؤول ببذل أي جهد لمعرفة حقيقة ما حدث، أو تقديم من قاموا بهذه الأعمال للمحاكمة، ولكن تبّين لي أن بريطانيا وبالرغم من قوتها وثقافتها، في ذلك الحين، إلا أن جنودها تصرفوا كالعصابات لا كجنود لدولة عظمى.

إن حادث حريق القرية لم يكن حادثاً عابراً، أو نتيجة لخطأ قام به جنود الاحتلال البريطاني، وإنما كان يقصد منه زرع الخوف والرعب في قلوب أبناء فلسطين بشكل عام وأبناء القرية والقرى المجاورة لها بشكل خاص، وعلى ما يبدو نجا من العقاب جميع من اشتركوا في هذه الجريمة.

أما شاهد العيان الوحيد الذي وصلتنا شهادته المكتوبة من أهالي القرية، فهو جبر سليم محمد، والذي سجّل شهادته في رسالة إلى أكرم زعيتر بتاريخ الخامس من أيار 1932:⁹²

“أخي الأستاذ أكرم زعيتر المحترم: سمعت أنكم توذّون معرفة قصة حرق البلد المنكوب (صرفند الجديدة) على أيدي الإنكليز عام (1918). حيث إنني من هذا البلد وممّن شهدوا تلك الليلة السوداء، فإنني رغبت في أن أكتب إليكم عما أستطيع تذكره من تلك الحادثة المشؤومة.

كان هناك مخيم للجيش الإنكليزي حول بلدة صرفند، كما كان إلى جانب القرية ثلاث مستعمرات يهودية تفتح أبوابها للجنود الإنكليز ليأتوا إليها للسكر والعربة، وكان هؤلاء الجنود يمشون في طريقهم للعودة إلى معسكرهم ببلدتنا وهم سكارى يعربدون. وقد ضاقت هذه الأعمال أهالي القرية الذين اضطروا للدفاع عن أنفسهم وأعراضهم بأن اتفقوا على تعليق أجراس في دكاكين البلدة ومجتمعها لتدقّ عندما يدخل هؤلاء الجنود إلى القرية. وكثيراً ما دارت اشتباكات بالأيدي والعصي والحجارة بين أهالي البلدة والجنود السكارى، ثم تنتهي بطرد هؤلاء الجنود من القرية، ما أثار حقنهم على أهالي البلدة، وقد حاول الأهالي لفت نظر الحكومة إلى هذه الأعمال عن طريق العرائض والشكاوى التي رفعوها إليها ولكن ما من مجيب.

وفي أحد الايام، زعمت الحكومة أن رجلاً من العسكر قد وجد مقتولاً في مخيمه إثر ضربه، ومع أن هنالك خمس أو ست بلدات بجوار بلدتنا، كما أن هنالك ثلاث مستعمرات يهودية أو أربعة، وكان الجيش [البريطاني] يحيط بها جميعاً، إلا أن الحكومة ادّعت أنه قُتل في بلدتنا، مع أن البلدة بريئة من دمه. وعلى إثر ذلك قامت قوة من الجيش بمداهمة بيوت القرية أثناء النهار، وجمعت كل ما في القرية من عصي وسكاكين، ونهبت ما وصلت إليه يدها من حليّ وأموال، وقامت بجمع بعض الرجال ثم أطلقت سراحهم. وعندما حلّ الظلام،

وحوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً، هجم الجنود المشاة على القرية وأحاطوا بها من كل جانب، وهنا دقَّت الأجراس في البلدة واجتمع المدافعون عنها، ولكن، حيث إنهم عَزَل من السلاح، والجنود مدجَّجون بالسلاح، فقد لجأ الأهالي إلى تهريب النساء والأطفال إلى بناء قديم حصين في القرية، لا يعرف دهاليزه أحد غير أهالي البلدة أنفسهم، وخرج الرجال لمقابلة الجنود فمنهم من نجا، ومنهم من قَبِض عليه الجنود وأردوه قتيلاً، ثم قام الجيش بإحراق منازل القرية كافة. وفي الصباح، انسحب الجيش تاركاً القرية خربة محترقة، وبعض الرجال جثثاً ملقاة على الأرض، وعدد كبير منهم مثنخاً بالجراح. وقد جاء الحاكم للقرية في الصباح فأمر بدفن الموتى [الشهداء] وبرحيل السكَّان إلى مكان آخر دون أن تَعيَّن الحكومة لهم جهة أخرى يسكنون فيها، ودون أن تأبه بأن السكان قد أصبحوا لا يملكون الخبز ليأكلوه، أما الجرحى فمنهم من قضى نحبه بعد عذاب شديد، ومنهم من قُضي عليه بأن يبقى ذا عاهة مدى الحياة.

وبعد فهذه هي الرواية الحقيقية لما حدث في بلدتنا أقصَّها عليكم كما وقعت.
وتفضلوا بقبول فائق الاحترام."

وأما المؤرخ الشعبي لقرية صرفند العمار، محمد سرحان عبد الرحيم، من مواليد العام 1934، فيذكر في مقابلة معه أجراها موقع فلسطين في الذاكرة، أن الجنود الإنكليز في سنة الاحتلال اعتدوا على إحدى بنات قرية صرفند الخراب، فأقدم شابان من أهالي القرية على ذبحه، وردَّ الإنجليز على ذلك بتدمير البلد وترحيل أهلها.⁹³

تشابه هذه الرواية مع ما ينقله أحد أفراد عائلة عنبر الصرفندي، في مقابلة مصوَّرة أجراها معه الأستاذ جلال رمانة بتاريخ 20 كانون الأول 2013، يقول فيها إنه كان هنالك ثلاثة جنود إنجليز سكارى حاولوا الاعتداء على بنات القرية، فقتلهم أهل البلد، وواحد منهم ذكي [أي أحد الجنود] رسم سهماً بالدم يشير إلى القرية، فقام الإنجليز بتطويقها

ثلاثة أطواق وقتلوا رجال البلد كلهم. كما يروي بأن جدّه الذي كان يبلغ من العمر ست سنوات قد نجا بعد أن ألبسته أمه ثوباً.⁹⁴

يتّضح من روايات أهل صرفند الخراب أن المجزرة جاءت ضمن تاريخ ممتدّ من اعتداءات أو محاولة اعتداء الجنود البريطانيين على نساء القرية بشكل خاص، وعلى أهل القرية عموماً، وبأن المجزرة جاءت انتقاماً لتصدّي أهل البلاد لعريضة الجنود السكارى المتكررة على القرية. وبحسب هذه الروايات، فإن أهل القرية قد نظّموا أنفسهم لمقاومة هجمات جنود الإمبراطورية على قريتهم باستحداث عادة قرع الأجراس لإعلان الاستنفار للمواجهة، كما أورد السيد جبر سليم محمد في رسالته لأكرم زعيتر، وأن أهل قرية صرفند الخراب لم ينتظروا حدوث المجزرة ساكنين مستسلمين للذبح، فقد قام رجال القرية بتأمين نسائهم وأطفالهم بتخبئتهم في دهاليز "البوبرية" التي لا يعرف الغزاة الطريق إليها. وقد أسهبت أعلاه في وصف "البوبرية" لا من باب البكاء على أطلال البلاد وتوثيق معالمها، وإنما للدور الذي لعبه البناء الأثري في مقاومة الغزاة، وقد أعيد تعريفه في لحظة المواجهة كحصن دفاعي عن القرية. ومن ثمّ خرج المدافعون عن القرية لمقاومة جنود الإمبراطورية، فمنهم من نجا ومنهم من كان نصيبه الشهادة. فمجزرة صرفند الخراب بقدر ما كانت مجزرة بشعة، كانت معركة بطولية، وأن أهل القرية، أو جزءاً كبيراً منهم، بقوا صامدين فيها بعد المجزرة-المعركة، وتمّ تهجير من بقي فيها من أهلها بأمر عسكري. وهنا يتّضح الهدف الحقيقي للمجزرة، ألا وهو تهجير القرية، وبأن عملية حرق بيوتها بقدر ما كانت انتقاماً، كانت أيضاً لحرمان أهل القرية من المأوى وإجبارهم على الخروج منها. وكذلك الأمر بالنسبة لتوثيقي أعلاه كلّ ما استطعت الوصول إليه من معلومات حول "بير الغارب" الذي ألقى جنود الإمبراطورية جثث الشهداء فيه بحسب رواية السيد محمد إبراهيم عن جدّته. وعلى الأرجح كانت عملية إلقاء جثث الشهداء في البئر الرئيسي للقرية بقصد تلويث مياه البئر وجعلها غير صالحة للشرب دفْعاً لأهالي القرية إلى تركها بحرمانهم من مصدر المياه الرئيسي، الذي كانت تشرب منه كل عائلات القرية بحسب ما ورد أعلاه.



"NOT SO MUCH OF THE BLOOMIN' DELILAR BIZNESS
WITH OUR RASHUNS, HALBERT!"

مرثية رقم (32): كاريكاتور في المجلة الرسمية لفرقة الأنراك (15 أيار 1918)

يصوّر تحرش الجنود بالنساء العربيات في فلسطين، المكتبة الوطنية-أستراليا، 1918.⁹⁵

في المقابل، يوجد من أهالي القرية من يرجعون المجزرة كردّة فعل انتقامية على مقتل جندي بريطاني أثناء عملية "غزو"، بحسب ما وصفها الحاج يوسف ابراهيم، على المعسكر البريطاني القريب من القرية. لفت انتباهي استخدام الحاج يوسف لمفهوم "غزو" في وصف عملية "سرقة" المعسكر، فالكلمة توّطّر الفعل كغزو للغزاة، وبذلك تمنحه شرعية مضادّة للشرعية الاستعمارية التي تجرّم الفعل. فما الذي يجعل سرقة بلد بأكمله وقتل أهله عملاً شرعياً ويمنح الجند والقادة الأوسمة والنياشين مكافأة لهم على جريمتهم، بينما يتمّ اعتبار انتزاع ما يقيم الوأد جريمة عقابها المجزرة؟ يعيد الحاج يوسف بطريقة حديثه إنتاج ثنائية القرصان والإمبراطور المعبّرة عن اختلال موازين العدالة في العالم. يقصّ القديس أوغسطين قصة قرصان أسره الإسكندر المقدوني، فسأله كيف تجرؤ على السطو على الناس

في البحار؟ فأجابه القرصان: عندما يكون لديك سفينة واحدة وتسطو على الناس يسْمُونك سارقاً، وأنت تسطو على الناس بأسطول فيسمُونك إمبراطوراً.⁹⁶

في المحصّلة، وبلاستناد إلى روايات أهالي صرفند الخراب، يمكننا القول إن المجزرة جاءت ضمن سياق ممتدّ من مقاومة أهالي قرية صرفند الخراب لجنود الإمبراطورية الغزاة، وسنفضّل لاحقاً السياق الأوسع لها ضمن الصراع التاريخي للقرية مع المستوطنين الصهاينة في "الكوبّانيات" المجاورة. وهنا تجدر الإشارة إلى أنه في اعتمادنا على مصادر التاريخ الشفوي، لا ينبغي لنا اختزالها بكونها رواية مضادّة للأرشيف الاستعماري أو مصدر آخر للمعرفة التاريخية، وإنما علينا أيضاً النظر إلى هذه الروايات الشفوية كموقع لتشكّل المعاني في عملية السرد وإضافة طبقات جديدة من المعاني، والتي لا تخلو منها هذه الروايات، في كل مرة يتمّ فيها حكاية الحدث لفهم التناقضات والتقاطعات مع الأرشيف الاستعماري، على اعتبار أن كتابة التاريخ في الحالة الفلسطينية هي إعادة ترميم للذاكرة وتحيين فاعليتها في الملحمة الفلسطينية المستمرة منذ أكثر من مائة عام، فلا الماضي يمضي ولا مقاومة رعب المجزرة تتوقّف.

5.5.2 مجزرة صرفند الخراب 1918 في التاريخ والوعي الأنجلو-صهيوني

تشارك المصادر الإمبريالية في عموميّتها التي أتت على ذكر المجزرة ضمن تأطيرها كـ"حدث شاذّ" في الحملة على فلسطين، ولطخة سوداء في سجل أبيض لهذه الحملة. في الحقيقة، فإن المجزرة جزء أصيل من العنف الإمبريالي الذي رافق هذه الحملة على أرض فلسطين. هذا العنف الذي جرت عملية منظّمة للتعتيم على حوادثه، وكان هذا التعتيم مضاعفاً في فلسطين بما يتجاوز عادة السلطة الاستعمارية بإخفاء جرائمها، وذلك لأن الحملة على فلسطين كانت منذ البداية حملة عسكرية ذات هدف دعائي و "حرباً مقدّسة" لتحرير شعوب المنطقة من الاستبداد والتخلّف التركي، ومن ثم إدخالها في حضن الإمبريالية الدافئ والحضاري.

يورد الباحث إدوارد وودفين جملة من الاقتباسات من مصادر أولية اعتمد عليها الكاتب لوصف الحياة اليومية لجنود الإمبراطورية في الحرب العظمى في فلسطين، وما يهمنها منها طبيعة العلاقة مع أهل البلاد التي تُظهر انهماك جنود الإمبراطورية في ممارسات تكتيلية يومية تعبّر عن سلوك عام من الجنود ضدّ أهل البلاد الفلاحين والبدو: اعتداءات جسدية، وإهانات وتحرّش بالنساء والاعتداء عليهن، وسطو منظّم على المحاصيل والماشية وكل ما يمكن وصول اليد إليه، إلى درجة خلع أبواب البيوت لاستخدامها في غلي الشاي، والأهم من ذلك كله ممارسة عمليات التهجير المنظّمة للتجمعات السكانية بما يتلاءم مع تطورات العمليات العسكرية، وترحيل أهلها بالقوة وفي شاحنات الجيش. في ختام سرده لمحتوى رسائل الجنود يعلّق وودفين: "ليس من الصعب تصوّر بذور الحقد تجاه بريطانيا التي زرعها هذه الممارسات والتي ستثمر حنظلاً مرّاً خلال فترة الانتداب بعد الحرب".⁹⁷

وما أقصده بالرواية الأنجلو-صهيونية للمجزرة، هو مجموع المصادر الأولية والثانوية الأسترالية والنيوزيلندية والبريطانية والصهيونية، وتشمل مصادر الرواية الإمبريالية المصادر الأولية التالية: يوميات جهاز الشرطة العسكرية في القسم المصري للقوات الإمبريالية الأسترالية، ومحضر لجنة التحقيق في مقتل الجندي لوري، وتسجيل مقابلات شفوية ومذكرات الجنود، وكتابات التاريخ العسكري الرسمي الأسترالية والبريطانية للحملة على فلسطين في الحرب العظمى.

وأما المصادر الثانوية، فتشمل: مراجعة الأدبيات والكتابات والدراسات البحثية التي تعرّضت للحادثة. وتتمّ في عموم هذه المصادر، الأولية والثانوية، الإشارة إلى مجزرة صرفند بـ "حادثة صرفند" (Surafend Incident) أو "قضية صرفند" (Surafend Affair). وتستخدم هذه المصادر والأدبيات اسم (Surafend) للقرية بحسب ما أثبتته خريطة صندوق اكتشاف فلسطين (1870) (Khurbet Surafend)، هذه الخرائط التي تمّ اعتمادها في العمليات العسكرية للحملة على فلسطين، واستُخدمت أساساً للخرائط

العسكرية البريطانية، قبل أن يتمّ تغيير الترجمة إلى (Sarafand) في الخرائط كما يظهر لاحقاً في مسوحات الفترة الانتدابية. وهذا بيانها:

أولاً، تُعرّف يوميات جهاز الشرطة العسكرية الأسترالية المنطقة التي تعسكر فيها القوات، والتي وقعت فيها المجزرة، بأنها "قطاع ريشون" أي مستعمرة "ريشون لتسيون"، وتورد ما يلي: في العاشر من كانون الأول 1918، الساعة الثامنة والنصف صباحاً، تمّ الإبلاغ عن إطلاق النار على جندي نيوزيلندي من قبل رجل يُشتبه في كونه بدوياً. وعلى الفور، تمّ البدء بالتحقيق. وفي الساعة الثامنة والنصف مساءً، تمّ استقبال محادثة من مكتب قيادة الفرقة النيوزيلندية تفيد بأن قرية صرفند تشتعل فيها النيران، وعلى إثرها توجهت قوات الشرطة العسكرية للقرية للتحقيق في الأمر.

وفيد تقرير الشرطة العسكرية أنه تمّ استقبال تقرير، الساعة الثامنة والنصف صباحاً من يوم العاشر من كانون الأول 1918، يفيد بمقتل الجندي لوري، وتمّ على الفور التوجّه إلى معسكر سرب الرشاشات الآلية النيوزيلندية الأول، حيث وقعت حادثة القتل. وحسبما يورد التقرير، تعقّبت القوات آثار الأقدام باتجاه قرية صرفند إلى أن اختفت على بعد 90 متراً من مساكن القرية. ومن ثمّ يفيد التقرير بأن قائد القوة قرّر القيام بعملية تفتيش في القرية بدأ تنفيذها في الساعة التاسعة والنصف صباحاً، ولم يتمّ العثور على دليل أو مشتبه له علاقة بالحادثة في القرية، ويذكر ما يلي: "الدليل المادي الوحيد الذي سلّم إلينا كان عقال (شبيهه بغطاء الرأس الذي يرتديه البدو)، والذي سلّمنا إياه أحد زملاء القتييل وعثر عليه في موقع الحادثة." كما يذكر سجل اليوميات بأن التحقيق في مقتل الجندي ليسلي لوري و"حادثة حرق قرية صرفند" استمرّ إلى اليوم التالي. أما التقرير الذي تمّت كتابته في يوم حدوث المجزرة، فجاء فيه:

"تمّ التبليغ بأن النيران تشتعل في قرية صرفند، وعند وصولي كانت قوات من الخيالة

النيوزيلندية والأسترالية وآخرين تقوم بأعمال الدورية على تخوم القرية، وكذلك كانت النيران تشتعل في مخيم البدو جنوبي 'ريشون'، ولكني لم أشاهد أي جندي يرتكب أي مخالفة لأقوم باعتقاله، ومن ثم قمت بتوجيه الأوامر لجميع الجنود في المكان بالمغادرة. ولاحظت أن بعض الجنود كانوا مسلّحين، بعضهم بالبندق والعض الآخر بمسدسات الطواحين وآخرين بالهراوات، ووجدت ثلاث جثث واثنين من الجرحى. أما في القرية، فكانت هنالك خمس جثث ومثلهم جرحى، ولم أشاهد أية علامات عنف على النساء والأطفال الذين كانوا محتجزين في مجموعات. وفي جولة التفتيش الأخيرة، تمّ العثور على جثث عشرة قتلى بالإضافة إلى سبعة جرحى.⁹⁸

وفي 16 كانون الأول 1918، أي بعد ستة أيام على المجزرة، تفقّد القائد العام (أللني) فرقة "الأنزاك" وألقى خطاباً توبيخياً قصيراً على مسامعها. وفي اليوم التالي، بدأت فرقة "الأنزاك" استعدادها للتحرك نحو رفح، وتمّ تشديد الحراسة على مخمرة "ريشون" وعدم السماح لأيّ من الجنود بالاقتراب منها، ومن ثم بدأت قوات "الأنزاك" المسير نحو رفح في اليوم التالي.

ثانياً، محضر جلسة التحقيق الذي عقده مقرّ قيادة السرب الأول للمدافع الرشاشة النيوزيلندي في "ريشون"، لغرض التحقيق في ملابسات مقتل الجندي في السرب ليسلي لوري. يحتوي المحضر على شهادة ثلاثة جنود من السرب الذي قالوا إنهم سمعوا صوت جلبة وعراك حوالي الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف ليل 10 كانون الأول، وصوت يُخَيِّل إليهم باللغة العربية، ومن ثمّ صوت طلق ناري من مسدس تبعه صوت يصيح طلباً للنجدة. بعدها تمّ العثور على الجندي لوري ملقى على الأرض ومصاباً بطلق ناري في الصدر. أما التقرير الطبي لتشريح الجثة، فيشير إلى مقتل لوري بطلق ناري في الصدر نتج عنه نزيف، وأن الطلق الناري أطلق من مسدس طاحونة عيار 0. 45 من نوع "كولت" (colt). وتشير بقية الشهادات من أفراد الشرطة العسكرية إلى أن الظلام الشديد منعهم من تتبّع آثار أقدام القاتل ليلاً. وفي الصباح التالي، في حوالي الساعة السادسة والنصف صباحاً، استؤنفت

عملية البحث وأمكن تتبُّع آثار الأقدام المتَّجهة نحو الشمال الشرقي للقرية، وأيضاً تَمَّت ملاحظة وجود العديد من متعلّقات الجنود كالحقائب، والتي تَمَّ تفتيشها والعبث بها في خيام أخرى في المعسكر، وتَمَّت أيضاً ملاحظة حركة نزوح من القرية صباحاً باتجاه الغرب وجنوباً باتجاه بئر سالم.⁹⁹

ثالثاً، يحتوي موقع مركز دراسات تاريخ سلاح الخيالة الأسترالية الخفيفة (Australian Light Horse Studies Centre) على شهادات 16 جندياً أسترالياً ونيوزيلندياً حول الحادثة، ويمكن إجمالها بالتالي: بلغ عدد ضحايا المجزرة 38 [شهيداً] من القرية ومخيم البدو المجاور (عرب لشبون في توصيف أهل صرفند الخراب، نسبة إلى مستعمرة الألماي "شبون" في بئر سالم). كانت القرية تُعتبر مصدراً دائماً للسرقة من المعسكر، وشارك في المجزرة جنود أستراليون ونيوزيلنديون، بالإضافة إلى جنود من كتيبة المدفعية الإنجليزية. تَمَّ إبعاد النساء والأطفال، ومن ثم بدأ الجنود بضرب الرجال وحرق القرية والمخيم. أما المُلّام، وفقاً لما أشار إليه الجنود، فكانت القيادة البريطانية التي كانت تتساهل مع جرائم الـ"نيتيفز" (الأصلانيين)، ولو أنها عاملتهم بحزم لما وصلت الأمور إلى التراجيديا التي حصلت.

وبعد مقتل لوري، فُرض طوق على قرية صرفند لمنع الجاني من الهرب، وذلك في انتظار أن تقوم سلطات القيادة باتخاذ الإجراءات بحق الجناة، ولكن لم يتم اتخاذ أي إجراء. بعد ذلك، طالبت قيادة الجيش برفع الطوق، وحاول اللواء شيتور، قائد فرقة خيالة "الأنراك"، منع هذا الإجراء. وبعد رفع الطوق، شُهد الكثير من أهالي القرية يغادرونها. وفي المساء، تَمَّ عقد اجتماع سري في مقرّ كتيبة المدفعية الإنجليزية، عُرضت فيه تفاصيل خطة الهجوم على صرفند، وتَمَّ إعطاء مهلة لرئيس القرية بتسليم القاتل. نحو 30-40 من أهالي القرية ضربوا حتى الموت بأسلحة بيضاء أساساً، والعدد الكبير للقتلى بسبب مقاومة أهل القرية. وتناقل الجنود أخباراً تحدّث عن عمليات إخصاء لذكور القرية، فضلاً عن رمي الجثث في بئرها. بعد

ذلك، تمّ حرق القرية، وغادرها جنود "الأنزاك" بعد عودة النساء والشيوخ إلى القرية الساعة العاشرة مساءً وبدء العويل على [الشهداء].

تمّ تحويل القوات إلى المحكمة، ولكن لم تثبت التهمة ضدّ أيّ منهم، ولم يستطع أهالي القرية تشخيص أحد من المهاجمين. لم يُدّن أحد، بحسب تقرير لجنة التحقيق في مقر كتيبة الخيالة الثانية، وأنكر كل من تمّ التحقيق معهم المشاركة، بينما أكّد جندي نيوزيلندي أن التنظيم المحترف للغارة يوجي بأنه من المستبعد أن يكون الجنود المنهكين منذ سنوات القتال الطويلة هم من قاموا بهذه الفعلة، وأن الذين قاموا بها "لا بدّ أنهم عصاة لم تشارك في القتال من قبل، هذا ما أنا متأكد منه من خلال معايير لكل هذه القصة".¹⁰⁰

وفي معرض توضيح الدوافع وراء ما جرى، تقول رواية أخرى إن القوات عانت طوال الحملة من خيانة "المحليين" الذين لم تتّم معاقبتهم على أفعالهم، من سرقة وقتل حراس المعسكرات وإخراج جثث القتلى وخلع ملابسهم عنهم، فاجتمعت كل الوحدات في المنطقة وألقى جندي من الخيالة الأسترالية خطبة في المجموع، ومن ثمّ عرض خطة الهجوم على القرية، مذكراً بكمين قرية عين السير، وهو الكمين الذي وقع خلال الغارة الأولى الفاشلة لاحتلال عمّان، بين 27-31 آذار 1918، موقعاً 18 قتيلاً بين القوات النيوزيلندية من ضمنهم رائد. وقد اعتُبر في أدبيات "الأنزاك" هجوماً غادراً من قبل سكان القرية الذين باغتوا القوة بإطلاق النار عليها أثناء انسحابها بعد أن أشعروا القوة بأنهم أصدقاء لها.¹⁰¹

بلغ العدد التقديري للقوات التي هاجمت قرية صرفند 200 جندي، في الوقت الذي لم يفضّ التحقيق الذي أجري في مستوطنة وادي حنين،¹⁰² حيث مقرّ قيادة القوات الأسترالية "لرايري"، إلى اتهام أيّ فرد أو وحدة بعينها، وذلك بسبب السرية التي خُطّط فيها للهجوم وتنفيذه. ويذكر الجنود أنهم لم يواجهوا بعدها أية مشاكل مع العرب.¹⁰³

كما قيل إن الصبايا في منطقة صرفند، ولسنوات بعد ذلك، بدّونَ بملامح شديدة الاستياء،

فيما اشتهرت صرفند، في حلقات الزجل، بالحدّاية الذكور [الرجال]. وأن الجنود "الأنزك" بعد المجزرة ذهبوا لشراء بعض ثمار البرتقال من قرية مجاورة، ولكنهم عادوا محمّلين بأكياس من البرتقال دون أن يكلفهم ذلك مليماً واحداً.

وفيما يلي مقتطف من رسالة وجّهها الجندي أمبروس موهلل¹⁰⁴ إلى السيناتور جورج بيرس، حول "حادثة صرفند"، بتاريخ 19 تموز 1936: "بعد دفن الجندي لوري في صبيحة اليوم التالي الساعة السابعة صباحاً، وصلتُ القرية، وكانت كتلة من الركاب. جثث برؤوس مهشّمة، وقمتُ بعدد 137 جثة. المسألة كلها متعلقة بالنيوزيلنديين. بعد دفن لوري صبيحة يوم الإثنين، أُعطي أهالي صرفند مهلة 10 دقائق لتسليم قاتله، وبعد رفض رئيس القرية تسليم القاتل، تمّ تجميع النساء والشيوخ والأطفال ممن هم أقل من 16 عاماً على تلة قريبة من القرية، وقد كان الهجوم على القرية بالأسلحة البيضاء والهاويات.

Surafend



مرثية رقم (33): رسم كاريكاتوري لمجزرة صرفند مرفق بمقال حول المجزرة

من العام 1933، المكتبة الوطنية-أستراليا، 1933. 109



مرثية رقم (34): هراوة طراز Mark V المعتمدة لدى جنود "الأنزاك" في الحرب العالمية الأولى، متحف الذاكرة الحربية - أستراليا، 1916.¹⁰⁶

ينقل وودفين عن رسائل الجنود "الأنزاك" إلى ذويهم بأن الجنود قرروا الإغارة على القرية لجعلها "عبرة ومثالاً"، ويصفون فيها حال القرية بعد المجزرة بـ "الكابوس الرهيب" وأكداس من الجثث ونساء وأطفال مصابون بالحروق يهيمون على وجوههم بغير هدى.¹⁰⁷ ويذكر الضابط والصحفي الأسترالي أندرو بيترسون الواقعة في كتابه تقارير مرسله سعيدة¹⁰⁸ في العام 1935، أنه "بعد مقتل جندي نيوزيلندي على يد لص عربي، قام جنود 'الأنزاك' بتنظيم 'مجموعة انتقامية'. لقد كانوا مستائين من كونهم يُقتلون ويُسرقون من قبل مجموعة من السكّان من المفترض أن يكونوا أصدقاء... فقاموا بالهجوم على القرية، واستعادوا المسروقات، وقاموا بقتل كل رجل في القرية، ومن ثمّ قاموا بإلقاء الجثث في بئر حتى امتلأت البئر بالجثث وأحرقوا القرية."

5.6 إعادة إعمار القرية

يقول السيد محمد حسن إبراهيم من مهجّري قرية صرفند الخراب، في روايته المذكورة أعلاه، إن روسيا بعد مفاوضات مع بريطانيا هي من قامت بتقديم التبرعات لإعادة إعمار القرية. وبينما تورد بعض الروايات بأن أهالي القرية مكثوا خارجها لما يزيد عن الشهرين وثلاثة، فعلى الأغلب أن عملية إعادة الإعمار تمّت بعد ما يقارب السنتين، وذلك بالنظر إلى أن مدرسة القرية تم بناؤها في العام 1920، وأيضاً إلى ما يرد في روايات أخرى لأهالي

القرية بأن بعض سكانها لم يُعد إليها بعد أن رتّب أموره في الأماكن التي غادر إليها بعد المجزرة، بمعنى أن مدة التهجير لم تكن قصيرة. وعلى ما يبدو أن العودة إلى القرية تمّت على مرحلتين: في المرحلة الأولى عاد إليها قسم من أهلها وسكنوها قبل إعمارها، والقسم الثاني عاد إليها بعد الإعمار.

أما في الأرشيف الاستعماري، فيظهر بأن وزارة الحرب البريطانية قد قدّمت مطالبة مالية¹⁰⁹ إلى الحكومة الأسترالية والنيوزيلندية للمساهمة في تكاليف إعادة إعمار القرية التي تمّت إعادة بنائها من قبل الجيش البريطاني في أواخر العام 1920، أي بعد تحوّل الإدارة العسكرية لفلسطين إلى إدارة مدنية، ووصول هربرت صموئيل كأول "مندوب سام" إلى فلسطين في تموز 1920، وما تبعه من صدور مرسوم نقل ملكية الأراضي في الأول من تشرين الأول 1920.

ويبقى السؤال: لماذا بقيت القرية مهجّرة لمدة تقارب العامين قبل أن تتمّ إعادة إعمارها؟ فبصرف النظر عمّن قام بإعمارها، من المنطقي أن تسارع السلطة الاستعمارية إلى إعادة الإعمار أو السماح به اتساقاً بما يحفل به الأرشيف الاستعماري والتاريخ الرسمي للحملة على فلسطين بإدانة المجزرة من قبل القيادة العليا للقوات البريطانية. وهنا يمكننا التخمين بأن قرار إعادة بناء القرية، أو السماح به، كان قراراً طارئاً تمّ ضمن الإجراءات البريطانية لتهدئة الوضع العام بعد الصدمات الأولى مع الصهاينة.

وكما أسلفنا، لم تكن مجزرة صرفند الخراب هي المجزرة الوحيدة التي ارتكبتها جنود الإمبراطورية خلال عملياتهم العسكرية في فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى. فبالإضافة إلى التنكيل اليومي بأهل البلاد وتهجيرهم خلال العمليات العسكرية، يُورد المؤرخ العسكري الأسترالي بيل غاميج¹¹⁰ ذكر مجزرة وقعت في قرية المجدل قضاء طبرية، في سياق حديثه عن علاقة جنود "الأنزك" بأهل البلاد: "الخيالة الأستراليون كرهوا العرب بشدّة، مع أنهم كانوا يحترمون الأتراك، فكان البدو يتجوّلون حول معسكرات الخيالة الأستراليين مثل ابن

أوى يتسوّلون ويسرقون. ومثل قائدهم رايري (محبّ الصهاينة)، كانوا على قناعة بأن قتل (العرب) لا يستحق الذكر، وفي كثير من الأحيان كانوا يغيرون على القوات البريطانية قليلة العدد أو المعزولة، وخلال العمليات العسكرية في سيناء في منطقة الحسانة، تعرّضت قوة من الجمّالة الأستراليين لإطلاق النار من قبل قنّاص بدوي، والذي تمّ لاحقاً القبض عليه واقتياده إلى مكان معزول، ثم قُتل بالفؤوس والبنادق. وتُروى حادثة وقعت في قرية مجدل-طبرية في أيلول 1918، حيث جمع أهالي القرية البنادق من مخلفات المعارك وأطلقوا النار على معسكر للبريطانيين في الليل، وفي صباح اليوم التالي قامت مجموعة من الجنود بغارة انتقامية على القرية وأوقفت ستة من رجال القرية في صف بحضور مختار القرية وأعدمتهم رمياً بالرصاص من أجل جعلهم عبرة للسكان المحليين."

لم تكن العدائية لأهل البلاد العرب في فلسطين وليدة الاحتكاكات معهم خلال سير العمليات العسكرية. فخلال تواجد قوات "الأنزاك" في مصر قبيل دخولهم إلى فلسطين، كان التعريف السائد للعرب هو كونهم عرقاً همجياً ومجموعة من المتسوّلين، وأُعطيت الأوامر بإطلاق النار عليهم لمجرد مضايقتهم للجنود. وتجسّدت هذه العدائية بشكل دموي فيما عرف في التأريخ العسكري لـ "الأنزاك" بـ "معركة الوسعة"، نسبةً إلى منطقة "الوسعة"¹¹¹ في حي "كلوت بك" بالأزبكية في القاهرة، بتاريخ 2 نيسان 1915، حيث قام ما يقارب 2500 جندي من "الأنزاك" بحرق وتدمير الحي وقتل العديد من أهالي الحي.

منذ ما يقارب الـ 15 عاماً، بدأت الصحافة الأسترالية والنيوزلندية، وكذلك بعض المؤرخين العسكريين، بفتح ملف مجزرة صرفند الخراب ضمن ما يمكن أن نسّميه بإعادة النظر في أسطورة "الأنزاك" كأسطورة مؤسّسة للهوية القومية، وضمن ما يمكن تسميته بـ "سياسات الاعتراف"، بما يشبه عمل المؤرخين الجدد الصهاينة في نبش تاريخ المجازر الصهيونية في فلسطين. وبالطبع، فإن الدافع غير المعلن للكثير من هذه المراجعات هو التصالح مع هذا التاريخ من منطلق ضرورة مواجهته، لا دفنه الذي استمر لمائة عام. وهذا لا يعني أنه

يمكننا اختزال هذه المراجعات جميعها ضمن هذا السياق، فبعضها يأتي ضمن نزعة تفكيك الأساطير المؤسّسة للقوميات المتأثرة بتيارات ما بعد الحداثة والبنوية، وبعضها يأتي ضمن سياق نضال أهل أستراليا الأصليين وإعادة كتابة تاريخ أستراليا من مركزية التاريخ الدموي الطويل في إبادة السكان الأصليين في هذا التاريخ، وبعضها يأتي من متضامين مع القضية الفلسطينية. ومن المهم هنا الإشارة إلى دور وصول أخبار جرائم الحرب التي ارتكبتها القوات الأسترالية في أفغانستان خلال احتلالها في العام 2001، كمحفّز لنباش التاريخ الأسود الطويل لجرائم الحرب التي ارتكبتها الجيش الأسترالي، ومن ضمنها مجزرة صرفند الخراب. وهذا لا يعني أيضاً أن هذه المراجعات لم تلق مقاومة عنيدة من قبل التيارات القومية التي رأت فيها خطراً على التاريخ والهوية الأسترالية والنيوزيلندية. إحدى الأعمال المهمة والمؤثرة في هذا السياق هي كتابات الصحافي الأسترالي بول دالي الذي يقدّم نقداً للذاكرة الحربية الأسترالية وأسطورة "الأنزاك" في عمله التمجيدي لمعركة بئر السبع في ذكراها الـ 100. يعترف دالي في كتاباته بفضاعة وهمجية مجزرة صرفند الخراب، ويتتبع تفاصيلها في الأرشيف والمذكرات، ويدين عملية التغطية عليها ومحوها من تاريخ "الأنزاك". ويقول إن هذه المجزرة جعلته يغيّر نظرتة لـ "الأنزاك" وهو يلهث في كتابة تاريخ البطولة المنسية في معركة بئر السبع. ولكن مع كل هذه الحمولة النقدية الجريئة، يعيد دالي تبرير المجزرة بالقول إنها وُلدت في اصطدام "الأنزاك" بالواقع القاسي للحرب في صحراء سيناء بالبدو كمحاربين ولصوص وجواسيس، وأن هذا الاصطدام سوف يبقى يغلي ويتراكم في الصدور ليجد طريقه بعد سنتين ونصف لتنفيسه في مجزرة صرفند..¹¹² عود على بدء!

كما يتمّ التطرق إلى مجزرة صرفند الخراب في عدد من الدراسات الأكاديمية لمجموعة من الباحثين الأستراليين والنيوزيلنديين التي تبحث في تشكّل الذاكرة القومية وفي الهويات الفرعية والإننيات في الجيش البريطاني، وأعطى مثلاً على هذه الدراسات الأكاديمية التي أتت على ذكر المجزرة بدراسة ميلنز، إذ: ينطلق ميلنز¹¹³ في رسالته بأن الجنود النيوزيلنديين الذين شاركوا في مجزرة صرفند الخراب قاموا بفعلتهم هذه بصفتهم جنوداً إمبرياليين يحملون قيم وعقلية الإمبراطورية العنصرية، ورؤيتهم لذاتهم في مهمّة تحضيرية

إمبريالية، أكثر من كون هذه المشاركة تعبيراً عن هويتهم النيوزيلندية. وبالاستناد إلى مصادر أولية، يحدّد ميلنز عدد الجنود المشاركين في المجزرة بمائتي جندي، وأنها تمّت دون استخدام الأسلحة النارية، ويورد أيضاً رواية لأحد الجنود المشاركين بأنهم قاموا بعملية إخفاء للذكور.¹¹⁴

كانت هذه جردة سريعة للمجزرة في المصادر الأولية والكتابات والأبحاث، وجُلّها تغفل عن قصد أو دون قصد الدور الصهيوني في المجزرة، والذي أحاجج بكونه دوراً رئيسياً كما سأفصّل في القسم التالي.

5.7 مجزرة صرفند الخراب صهيونياً

كان جنود "الأنزاك" أول الواصلين إلى "نس تسيونا" في 14 تشرين الثاني 1917، واستقبلهم المستوطنون الصهاينة بالترحيب. وبعد معركة عيون قارة، أوكل الإنجليز إلى أحد منتسبي الفيلق العبري مهمّة التنسيق مع سكان المستوطنة. وبدأت العلاقة بين جنود الإمبراطورية والمستوطنين تتوطّد بسرعة، واعتبر الصهاينة أن وجود معسكرات "الأنزاك" في عيون قارة سيوقف هجمات العرب على مستوطناتهم، ولذا كانوا حريصين على بناء علاقة متينة مع "الأنزاك" ضمن هذه الاستراتيجية النفعية. فقد أقام مستوطنو "ريشون لتسيون" و"نس تسيونا" نصباً تذكاريّاً لقتلى "الأنزاك" في معركة عيون قارة، بتاريخ 14 تشرين الثاني 1917.

وفي المقابل، لم يصل جنود "الأنزاك" إلى فلسطين خالين من الهوى الصهيوني، إذ ينّبه لورينزو فيراتشيني¹¹⁵ إلى أن الصهيونية كانت أكثر تقبّلاً في المستوطنات البريطانية المستقلة ذاتياً (من مثل أستراليا وكندا) من بريطانيا ذاتها. وفي فترة ما بين الحربين، تعالت الدعوات في هذه المستوطنات لأن تكون فلسطين ذاتها مستوطنة بريطانية (dominion)، وتلقّت الحركة الصهيونية دعماً مالياً وسياسياً نشطاً من هذه المستوطنات، ويموضع "فيراتشيني" التطهير العرقي لقرية صرفند الخراب من قبل "الأنزاك" ضمن هذا السياق.

اتخذ اللواء غرانفيل رايري (Granville Ryrie)، المسيحي الصهيوني، من "نس تسيونا" مقراً لقيادته، وكان يثقّف جنوده وضباطه بضرورة عودة الشعب اليهودي إلى أرض الميعاد. وإلى رايري هذا، بحسب ما أورده دالي، تعود بداية التسترّ على مذبحه صرفند الخراب من خلال التقرير الذي رفعه للقيادة العليا في نهاية شهر كانون الأول 1918، ومن الواضح أن حرق القرى العربية هواية استعمارية أثيرة للعين رايري هذا. بعد ما اعتُبر تسريحاً عقابياً لـ"لأنزاك" إلى مصر بعد مجزرة صرفند الخراب، تحوّلت الفرقة إلى القوة الضاربة للإمبراطورية في قمع الثورة المصرية 1919. ويورد غاميج حادثة¹¹⁶ أمر فيها رايري بحرق قرية مصرية انتقاماً لمقتل جندي بريطاني. وأما الجنرال شاولف (Chauvel) القائد الأعلى لفرقة "الأنزاك"، فقد اتّخذ من مستعمرة ديران "رحوفوت" مقراً لقيادته في أحد مباني المستوطنة العامة، وفي روايات المستعمرة كان شيفل دائم الحديث أنه وجنوده جاءوا إلى الأرض المقدسة لتحريرها من أجل الشعب المختار.¹¹⁷

جاء دخول جنود الإمبراطورية إلى المستعمرات اليهودية في أوج الصراع المحتدم بين هذه المستعمرات وأهل البلاد الذين تكثّفت غزواتهم عليها بسبب حالة العوز والجوع والضيّق الشديد التي سبّبتها الحرب وما سبقها من موسم جفاف، وما رافقها من قضاء الجراد على المحاصيل الزراعية. وهذا بينما كانت المستعمرات الصهيونية مكتنزة بالوفرة، إذ كانت تحظى بالدعم عن طريق المساعدات الإنسانية في أوروبا، والتي كانت تصل فلسطين عن طريق مؤسسات الإغاثة الأمريكية قبل أن تدخل أمريكا الحرب، وكذلك الإعانات المقدّمة من المؤسسات الداعمة المحلية، إذ قدّم بنك "أنجلو فلسطين" الصهيوني (لثومي لاحقاً)¹¹⁸ القروض والمساعدات الإغاثية، بالإضافة إلى الوجبات والحصص الأسبوعية من الطحين التي كانت تقدّمها القنصلية الألمانية، ومساعدات مالية عديدة استفاد منها الآلاف.¹¹⁹ حظيت "الكوبّانيات" بكل هذه المساعدات، بما يخالف الصورة التي ترسمها الأدبيات التاريخية الصهيونية لحال العسرة الشديدة الذي عانت منه هذه المستعمرات خلال الحرب بعد توقف صادراتها بسبب الحصار البحري المفروض على الأراضي العثمانية. وذات الوفرة كانت تكتنزها معسكرات الجيش البريطاني المتخمة بالأغذية،

والتي تحوّلت هي الأخرى إلى هدف لغزوات الفقراء طلباً لما يسدُّ الرمق وشيئاً فشيئاً طلباً للسلّاح. ومما يجدر ذكره أن أسلحة الحرب العالمية المتروكة في ميادين الحرب العالمية الأولى في فلسطين، وما انتزع من معسكرات الجيش البريطاني عنوة، شكّلت مصدر التسليح الأول للشوّار الفلسطينيين في ثورة 1936.¹²⁰

لم يقتصر دور المجتمع الاستيطاني الصهيوني على استقبال واستضافة جنود الإمبراطورية الغازية، فبعد حسم النقاشات حول الموقف الأنسب له في دعم القوى المتحاربة، كان المجتمع الاستيطاني شريكاً في الحرب. ومع تأسيس الفيلق العبري في الجيش البريطاني الذي انضمَّ إليه متطوعون كثر من المستعمرات في المناطق التي احتلّها الجيش البريطاني من نهر العوجا حتى سيناء خلال فترة توقف العمليات العسكرية بداية العام 1918 حتى استئنافها، قدّم المستوطنون خدماتهم كأدلاء للجيش البريطاني ومترجمين من اللغة العربية، وفي المسح الطبوغرافي والتجسس على القوات العثمانية والألمانية خلف الخطوط. هذا بالإضافة إلى تقديم تقارير عن المزاج العام لأهل البلاد، والتسّتر على طلائع الجيش البريطاني. وقد كان لدخول القوات البريطانية إلى فلسطين أثر معنوي كبير على المستوطنين الذين أحشوا بالأثر المعنوي لقوة عسكرية عظمية حليفة تجوب البلاد على العرب.¹²¹ وبعد احتلال القدس، سرت حالة من الهيجان في المجتمع الاستيطاني تحوّلت إلى اندفاع بضرورة إظهار القوة لأهل البلاد ومن ثمّ التوسّع الاستيطاني والانتقام من هجمات العرب، والتي كان آخرها هجوم البدو والقرويين على بيوت "تل أبيب" الفارغة ونهبها بعد ترحيل مستوطناتها من قبل الجيش العثماني خلال الحرب، وشنق اثنين من اليهود بسبب وقوفهم أمام عمليات النهب عبّرة للآخرين كما يروي موريس.¹²²

جاءت مجزرة صرند الخراب والدور الصهيوني فيها ضمن سياق هذه العلاقة الأيديولوجية والعسكرية، وبعد التحوّلات التي مرّت بها المستوطنات الصهيونية، والتي وصلت مع اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى مرحلة فرضت فيها المسألة العربية حضورها في الأدبيات الصهيونية مع صعود التيار الاشتراكي في "الليشوف" واحتلال العمل بموازاة

فشل استراتيجية الثقاف والاندماج، خاصة في مسألة الحراسة والتي كان عنوانها استلام "الحارس الشاب" لمهام الحراسة، بعد تكثف حدة الصراع مع المستوطنين على خطوط التماس مع المستوطنات قبيل الحرب، والتي زادت خلالها بسبب حالة العوز والضيقة المذكورة أعلاه. في هذا السياق العام، كانت قرية صرفند الخراب في عين العاصفة، فقد كانت بالنسبة للمستوطنين (اتحاد مستوطنات يهودا) جيباً غريباً ومعادياً مزروعاً في وسطها. وكان إعلان وعد بلفور، ومن ثم "تحريرها" من قبل الغزاة، دافعاً للإعلان عن التحول الفعلي نحو حل المسألة العربية بالقوة بالتزامن مع تداول نشط حول خيار الترانسفير للفلاحين في المناطق الساحلية تحديداً، حيث الكتلة الاستيطانية الأكبر وتركز قيادة اليشوف فيها. وهنا يمكننا موضوعة الإشارة في صحيفة البلاغ الى دور "إبراهيم بلومفيلد -أبو يونس" صاحب نظرية فهم العرب كوسيلة للأمن، بعد فسخ عقد الحراسة معه في مستوطنة "روحوفوت" والتعاقد مع "الحارس الجديد"، صاحب النظرية الحازمة في التعامل مع العرب كما سيأتي تفصيله.

كل ذلك في الوقت الذي اعتبر الصهاينة أن قيادة الإدارة العسكرية لـ"إدارة أراضي العدو المحتلة (OETA - SOUTH)، التي أسسها "أللنبي" في نيسان 1918، لا تلتزم بوعد بلفور كمبدأ ناظم لعملها في فلسطين، هذا بالإضافة إلى ما رأته الحركة الصهيونية من تعاطف بين قيادتها اتجاه عرب فلسطين، وإن كان مردُّ هذا التعاطف رغبة هؤلاء الضباط بالحفاظ على الهدوء في فلسطين في وقت لا زالت فيه العمليات العسكرية مستمرة في مجتمع منهك يحتوي كل أسباب الانفجار. فقد اعتبروا أن المضي قدماً في "صهينة فلسطين" الآن سيؤدي إلى انتفاضة عربية¹²³ يمكن أن تشكّل خطراً على الإمبراطورية يتعدى حدود فلسطين. لم يكن دافع التأيي البريطاني في صهينة فلسطين تعاطفاً أو نظرة إيجابية لعرب فلسطين، كما ادّعت القيادة الصهيونية. فقد كان الاتجاه السائد في الجيش الإمبريالي هو النظرة العنصرية الكارهة للعرب في فلسطين. وبهذا يمكننا القول إن القيادة الصهيونية شعرت بالإحباط من بطء تقدّم عمليات الهجرة والاستيطان مع تزايد عدائية العرب في فلسطين للصهيونية بعد صدور وعد

بلفور. ويمكننا هنا موضعة العمل الصهيوني لاستغلال العلاقة مع جنود الإمبراطورية على المستوى المناطقي لتنفيذ أعمال عدائية ضدَّ العرب، كما حدث في مجزرة صرفند الخراب. كما يمكننا فهم تغطية القيادة البريطانية وكتمها أخبار المجزرة لاعتبارات أمنية، وأيضاً خشية أن تؤدي إلى حالة غليان في المنطقة، خاصة في ظلَّ الموجة الثورية التي عمَّت مستعمرات الإمبراطورية في المنطقة والعالم ما بعد الحرب العظمى.

بقيت مجزرة صرفند الخراب مهملة في الكتابة التاريخية البحثية الصهيونية النشطة ذات الطابع التفصيلي للحرب العالمية الأولى، ويتضح بأن هذا الإهمال مردهُ العلاقة الوثيقة بين عملية التأريخ النشطة لهذه الحرب صهيونياً والدبلوماسية الدعائية الصهيونية التي تستثمر تاريخ الحرب العظمى وذكرياتها وأحداثها في بناء تحالفات وتدعيمها، خاصة مع الأستراليين والنيوزيلنديين والهنود، إذ يمثل "الأنزاك" الفئة الأكثر حضوراً في سياسات التخليد الصهيونية للحرب. ومع ذلك، تحضر مجزرة صرفند الخراب كشذرات في مذكرات جنود الفيلق اليهودي والمستوطنين المحيطين بالقرية، كما يتضح في الشواهد التالية.

في كتابه جنود يهودا، يقول رومان فريوليك،¹²⁴ من الفيلق العبري، إنه بعد عدَّة أشهر من مجزرة صرفند الخراب (10 كانون الأول 1918)، تعرَّض جندي أرجنتيني من الفيلق اليهودي لهجوم من قبل بعض البدو وهو في طريق عودته من مستعمرة "ريشون لتسيون" إلى معسكر الفيلق في صرفند. وبعد أن استطاع الإفلات من المهاجمين والوصول إلى المعسكر بعد إصابته، اجتمع جنود الفيلق ليلاً، واقترح أحدهم، الحاقد بشدة على بدو المنطقة، القيام بعملية انتقامية باستخدام "الطريقة الأسترالية" (مجزرة صرفند الخراب) لتأديب البدو. أيقن جميع الحضور ما الذي كان يدور في خَلده، وقرروا بعد التصويت القيام بعملية انتقامية فجراً ضدَّ تجمع البدو مسلَّحين بالحِراب. وما أن وصلوا مخيم البدو حتى انفتحت أبواب الجحيم، فانهالوا ضرباً على كل الرجال، فيما هربت النسوة بأطفالهنَّ، ومن ثمَّ مزَّقوا الخيم وحطَّموا كل محتوياتها. وفي تلك الليلة، نزع البدو، لتصبح الطريق بين "ريشون" و"صرفند" آمنة منذ ذلك اليوم.

هذه أول حادثة موثقة لتحوّل مذبحة صرفند الخراب إلى نموذج عمل للقتل والتهجير صهيونياً في التعامل مع التجمعات السكانية الفلسطينية. وليس من المستبعد أن تكون مجزرة صرفند الخراب هي التجربة الحية التي انبثقت منها نظرية الجدار الحديدي لجابوتنسكي، قائد الفيلق اليهودي المعسكر على أطراف القرية حينها، وربما المشارك أيضاً في المجزرة، بحسب ما ورد أعلاه في شهادة أحد جنود "الأنزاك" باعتقاده أن من قام بالمجزرة كانت مجموعة لم تشارك في القتال الفعلي خلال الحملة على فلسطين، والمجموعة الوحيدة التي ينطبق عليها هذا التوصيف هي الفيلق اليهودي. وكما سترى لاحقاً، سيتكرر استدعاء "نموذج صرفند الخراب" في تهديد قرية صرفند الخراب ذاتها خلال ثورة 1936.

وفي الكتب التذكارية للمستعمرات الصهيونية المقامة على أرض فلسطين ما قبل النكبة، عادة ما يتمّ استدخال تاريخ القرية العربية التي أقيمت على أراضيها هذه المستعمرات وتحويلها إلى جزء من الرواية الصهيونية المحدث للمكان، ومن ضمنها أحداث الحرب العظمى في المستوطنة وما حولها، بصفة هذه الأحداث علامة فارقة في السردية الصهيونية لفلسطين. في هذه الأدبيات تصير الأحداث المتعلقة بالقرى الفلسطينية تقع داخل الرواية الصهيونية لفلسطين لا خارجها، وفي حالة صرفند الخراب تتعدّى المسألة التدوين التاريخي والسردية إلى تكوين الشخصية العسكرية الصهيونية وتحولاتها. وهنا، لا بدّ لنا من الحديث بشيء من التفصيل حول الجغرافيا الاستيطانية لصرفند الخراب باعتبارها مقدمة ضرورية لموضوع الرواية الصهيونية في سياقها الاستيطاني التاريخي لفهم وتحليل الدور الصهيوني في المجزرة.

5.8 صرفند الخراب المحاصرة

منذ العام 1880، بدأت كتلة استيطانية بالتشكّل في السهل الساحلي الفلسطيني الأوسط، في ريف الرملة، والتي أطلق عليه الصهاينة اسم "يهودا". وعشية الحرب العالمية الأولى، كانت صرفند الخراب محاصرة بالمستعمرات من جهاتها الأربعة، عيون قارة شمالاً

(ريشون لتسيون) إلى ديران (رحوفوت) جنوباً وخربة بيار الليمون (بئر يعقوب) شرقاً وغرباً ووادي حنين (نس تسيونا). وحظيت هذه المستعمرات بدعم مالي من البارون روتشيلد، واستفادت من الخبرة التقنية المستقاة من تجربة المستعمرات الزراعية في الجزائر، خاصةً في مجال زراعة الكرمة لصناعة النبيذ.¹²⁵ ولكنها تمرّدت لاحقاً على سلطة روتشيلد، لتقوم اقتصادياتها على الإنتاج الزراعي المعدّ أساساً لتصدير الحمضيات والخمور واللوز. كانت هذه المستعمرات رأسمالية الطابع شرهة إلى العمالة الرخيصة للفلاحين الفلسطينيين، الذين شُرّد الكثير منهم من أراضيهم بعد أن انتقلت ملكيتها إلى المستوطنين عبر صفقات مع كبار الملاك أساساً، وكانت العلاقة بين القرى الفلسطينية وما جاورها من كوّانيات علاقة استغلال مرّكبة، استغلال اقتصادي ومعاملة لم تخلُ من القسوة في كثير من الأحيان، إذ كان على الفلاح تقبُّل العنف الناتج عن نكرانه جميل تشغيله في المستعمرات، وفي الوقت ذاته عمل المستوطنون على تغليف هذا الاستغلال المزدوج بعلاقة اجتماعية "ودّية" مع القرى.

يذكر أحد مستوطني عيون قارة (ريشون لتسيون) في إحدى رسائله بأن قرية صرفند الخراب، الواقعة جنوب المستوطنة، كانت عبارة عن أطلال قبل نشوء المستوطنات الصهيونية حولها في نهاية القرن التاسع عشر، وأنها أصبحت قرية كبيرة ومزدهرة بسبب الكثير من أهل القرية الذين هجروها مسبقاً وقد عادوا إليها نتيجة توفّر العمل للجميع، رجالاً وذكوراً وكباراً وصغاراً، في المستعمرات.¹²⁶ ويأتي ذكر قرية صرفند الخراب في الأدبيات الصهيونية كأحد الأمثلة على القرى التي صُنّف سكّانها بأنهم غير أصليين، وإنما "مهاجرون غير شرعيين" قدموا إلى فلسطين للعمل واستقروا فيها.¹²⁷ كما يشير الكتاب التذكاري التاريخي لـ"نس تسيونا" "مدينة في قلب موشافا" إلى أن العرب ليسوا سكاناً أصليين في المنطقة،¹²⁸ ولا ينتمون إلى الكنعانيين ولا الفلسطينيين، وإنما استقروا فيها عبر سلسلة من الهجرات من خارج فلسطين ابتداءً من الفتح الإسلامي وصلاح الدين مروراً بالحكمين العثماني والمصري، وأنهم مارسوا قطع الطريق على الشارع الرئيسي، كما يحمل أهلها المسؤولية عن قتل المستوطن الأول أبراهام ليفسكي في وادي حنين في العام 1887.

ومنذ تأسيس "ريشون لتسيون"، اعتُبرت مضارب البدو المجاورة وقرية صرفند الخراب مصدراً دائماً للتهديد، مع بدء الصراعات المبكرة مع رعاة المواشي والأغنام، واختراقهم حدود أراضي المستعمرة، والتهديد الدائم للطريق الواصل بين (ريشون لتسيون-نس تسيونا-رحوفوت)، ومن ثمَّ حرص الاستراتيجية الاستيطانية على خلق تواصل جغرافي بين هذه المستعمرات. وبالنظر إلى هذه الاعتبارات كلّها، حدّدت لجنة مستعمرة "ريشون لتسيون" الأراضي الخصبة لقرية صرفند الخراب، إلى الجنوب منها، كهدف رئيس للتوسع الاستيطاني، وأرجعوا ما أسموه أعمال السرقة والتعدّي على أراضي المستعمرة الناتجة عن هذا التوسع الاستيطاني إلى تفسير نفسي، فقد كانوا يعتقدون أن بيوت المستعمرة البيضاء المرفّهة وحظائر ماشيتها ومخازنها العامرة تثير الحسد في نفوس الفلاحين الفقراء.¹²⁹ يُطلق الباحث الصهيوني كارليناكي على هذا الجزء من الساحل الفلسطيني "الساحل الرأسمالي"، حيث كانت 75 % من الأراضي المزروعة بالحمضيات ملكيات خاصة.¹³⁰ وقد كانت المستعمرات المقامة في هذا الساحل قائمة في بدايتها على الملكية الخاصة الفردية ونهمة للعمالّة الرخيصة للفلاحين الفلسطينيين، وكان دافعها الربح أساساً أكثر من الدافع الأيديولوجي، ومن ثمَّ تحوّلت هذه المستعمرات إلى موقع للصراع بين الجيل الأول منها (1880-1904) والقادمين الجدد في الهجرات الاستيطانية التالية التي اتّسمت بالطابع الأيديولوجي (الصهيونية الاشتراكية والطلائعية). وكانت بؤرة هذا الصراع تدور حول "عبرنة العمل"، سواء في العمل الزراعي أو في قطاع الأمن والحراسة. فقد طالب المستوطنون العمّاليون (مستوطنو الهجرة الثانية 1904-1914 بحسب التاريخ الصهيوني) أن يتمّ تشغيل الأيدي العاملة الصهيونية حصراً في الاقتصاد، حتى لو كانت أجورها تصل إلى ما يقارب ضعفاً ونصف ضعف ما يتقاضاه العامل الفلسطيني في ظروف تشغيلية مرنة (العمالّة الموسمية والمياومة والتي تحدّد إيقاعها مواسم القطاف والعناية بالأرض بما يتناسب مع احتياجات العمل الزراعي الموسمي).¹³¹ هذا مع الإشارة إلى أن العديد من الفلاحين الذين كانوا يعملون بالمزارعة وتضمين الأرض قد واصلوا العمل على الأرض ذاتها بعد بيعها من الإقطاعيين العرب والفلسطينيين للصهاينة. كان تشغيل العمالّة الفلسطينية يعني عند الجيل الجديد نقضاً للروح الصهيونية التي جاءت إلى فلسطين لتبنيها وتبني ذاتها فيها. وقد نشبت الحرب العالمية الأولى في أوج الصراع حول عبرنة العمل في

داخل الكوئانيات الصهيونية والتوثرات والمناوشات مع الفلاحين الفلسطينيين في القرى المجاورة لها، والتي كانت تدور حول ملكية الأرض. وفي العام 1914، قام أحد أهالي صرفند الخراب، والذي تسمّيه المصادر الصهيونية بـ "أبو علي"،¹³² باغتيال زيبغر (وعلى الأرجح المقصود أرييه زيبغر رئيس لجنة مستعمرة "ريشون لتسيون") انتقاماً لشرائه مساحة كبيرة من أراضي صرفند الخراب. وتذكر المصادر ذاتها أن أبو علي كان يعمل مسؤولاً عن حراسة كروم "ريشون لتسيون" بين 1912-1913 قبل فصله وعبرته العمل في الحراسة. وقد رافق هذا الصراع على الأرض إغارات مستمرة من قبل الفلاحين والبدو على المزارع الصهيونية في الكوئانيات، هذه المناوشات التي وصلت في وقت مبكر إلى الصدام الدموي.¹³³

بلغت مساحة القرية قبيل النكبة في العام 1945، بحسب إحصائيات القرى لسامي الهداوي، 5503 دونمات، بينما تشير سجلات الأراضي إلى أن المساحة الإجمالية لأحواضها الـ 15 بلغت 10050 دونماً. ما يعني أن الصهاينة كانوا قد نجحوا في استملاك نصف أراضي القرية على الأقل،¹³⁴ والتي تحوّلت ملكيتها إلى المستعمرات المجاورة (وادي حنين وعيون قارة أساساً) وخرجت بذلك من ملكيات القرية. ونتيجة لتصنيف معظم أراضي القرية كـ "أراضي ميري"، أي أن الاحتفاظ بملكيتها مشروط بزراعتها، لم يكن في كثير من الأحيان أمام قرويي صرفند سوى بيع جزء من أرضهم من أجل الحفاظ على الجزء الآخر.¹³⁵ وقد خاضت قرية صرفند الخراب صراعاً طويلاً مع المستعمرات المجاورة لها متمحوراً حول الأرض، والتي يمكننا أن نراه في مجزرتها عام 1918 باعتبارها أحد فصول هذا الصراع، وذلك بسبب موقع القرية الاستراتيجي المسيطر على الطريق ما بين مستعمرة عيون قارة والطرف الجنوبي الأقصى للكتلة الاستيطانية مستعمرة رحوفوت (ديران)، وعلى الطريق ما بين مستوطنة وادي حنين و"بئر يعقوب" على المحور الشرقي الغربي.

وبحسب أفنر كهانوف، مسؤول الأمن في مستعمرة "نس تسيونا" ومن جيل مستعمرها الأول، شكّلت قرية صرفند الخراب حاجزاً يمنع تطوّر المستعمرة باتجاه الشمال والشرق لكي تصل حدودها المستعمرة الكبرى الجنوبية عيون قارة وجناح "نس تسيونا" الشرقي

ومستعمرة "بئر يعقوب". هذا الحقد الصهيوني الناشئ من الصراع على الأرض بدأ مع صرفند الخراب منذ بداية الاستيطان¹³⁶ ونشأة المستوطنة الأولى في العام 1884، حيث قام مؤسسها البولندي روبن ليرر¹³⁷ بتبديل ممتلكاته في روسيا مقابل أراضٍ تملكها المستوطن الروسي من أصول ألمانية جوستاف ريسلر في وادي حنين، وهي بيارة تبلغ مساحتها ألفي دونم من أراضي صرفند الخراب، حينما قرّر المستوطن الهيكلي ريسلر مغادرة فلسطين بعد أن فتكت الملاريا بـ 12 مستوطناً من ضمنهم اثنين من أولاده. وبعد وصول روبن ليرر إلى وادي حنين، نشب صراع بين المستوطنين الجدد وأهالي صرفند الخراب، ورفع الأهالي دعوى استعادوا بعدها ملكية 572 دونماً من الأرض، وقد شكّل هذا الصراع الأول حدثاً مؤسساً في العلاقة بين القرية والكوبانية.¹³⁸

وبالعودة إلى مجزرة صرفند الخراب، فبحسب كهانوف كان معسكر "الأنزك" يمتدّ على طول سكة الحديد العثمانية شرقيّ صرفند الخراب، واعتاد أهل القرية الإغارة على معسكر الأستراليين، الذي حوى مركز التموين للقوات الأسترالية. وفي إحدى الليالي، شاهد الحارس مجموعة من اللصوص وركض نحوهم وتعارك معهم وقاموا بطعنه بالشبرية بين ضلوعه. وبعد أن وجد الجنود الأستراليون زميلهم غارقاً في دمه، قاموا بتتبّع آثار المهاجمين التي أوصلتهم إلى قرية صرفند الخراب، فقاموا بتطويق القرية ومُنح المختار مهلة 24 ساعة لتسليم الجناة. ثم قامت فرقة أسترالية باجتياح القرية، وتجميع النساء والأطفال وكبار السن في بيارة رتنر (רֶטְנֶר סְטֶרַג) في "نس تسيونا"، ومن ثمّ أضرموا النيران في القرية ودمّروها، وقُتل الكثير من أهالي القرية.

وفي مذكراته عن العمليات التي تعرّضت لها "نس تسيونا" خلال ثورة 1936، يروي كهانوف حادثة مقتل مستوطنة بعد أيام من مقتل مستوطن في كمائن على طريق المستوطنة، والتي ينسبها إلى فضيل علي بدر "الدموي"، بحسب تعبيره، وتوجّه قادة المستعمرة بزعامة بوكسر إلى بيت مختار قرية صرفند الخراب وهددوه بأن سقوط ضحية إضافية سيُجلب على القرية "عملاً انتقامياً يذكّر الصرفنديين بما قام به الأستراليون وقتها".¹³⁹

ארון תצוגת נשק
לזכר אברהם בוקסר ז"ל
נותרם ע"י רעייתו יפה וילדיה
נובמבר 2007



מרתבת רמק (35): חרבת מן טראז 1907 וחרזנת אسلחת "בוקסר" فف متحف مستوطنة "نس تسفونا"، تصوفر المؤلف، 2022.

ويروي كهانوف أنه قام بتحضير خطط لعمليات انتقامية في صرفند الخراب بعد استمرار عمليات فصيل علي بدر، والتي أدّت إلى مقتل عدّة مستوطنين من "نس تسبوننا"، فقرّر تنفيذ عملية انتقامية ضدّ صرفند الخراب تستهدف بيوت القرية وأبارها وبياراتها بالحرق، بالتنسيق¹⁴⁰ مع مقاتلي مستعمرة "ريشون لتسيون"، تبعها كمين لفصيل علي بدر أسفر عن [استشهاد] أربعة من أهالي القرية ألقوا بجثثهم في أحد الآبار.

وفي قصاصة ورقية ضمن مجموعة عادل الزيتاوي،¹⁴¹ في أرشيف المتحف الفلسطيني، يصف الزيتاوي فيها المجاهد علي بدر بالقول: "كانت هوايته قنص وصيد حراس المستعمرات الاستيطانية"، موضحاً أن ميدان عمله كان يقع في وادي حنين، برفقة المجاهد إسماعيل سليم. وبحسب مقابلة التاريخ الشفوي مع الحاج محمد إبراهيم،¹⁴² من مهجّري صرفند الخراب، فإن أصول المجاهد علي بدر تعود إلى قرية صُمّيل - قضاء الخليل، وأنه وفد إلى القرية صغيراً مع أخته التي تزوجت في صرفند الخراب وعاش فيها وأصبح من أهل البلد.

ويذكر أهالي قرية صرفند الخراب كميناً¹⁴³ نُفّذ ضدّ المجاهدين في منزل المرحوم العبد خليل إبراهيم في البيّارات في العام 1938 وينسبونه للإنجليز، ويأتون على ذكر الشهيد علي بدر، حيث دارت على إثر هذا الكمين معركة أسفرت عن استشهاد المجاهد مصطفى عمارة وإصابة ثلاثة من المجاهدين: المجاهد علي بدر، والمجاهد الحاج إسماعيل سليم إبراهيم، والحاج أحمد درويش إبراهيم. ويبدو أن المجاهد علي بدر قد استشهد في هذا الكمين، وكذلك ربما باقي المصابين المذكورين أعلاه، إذ يرد في كتاب **شاهد على النكبة** أن المجاهد علي بدر استشهد رفقة المجاهد مصطفى عمارة في اشتباك مع الإنجليز.¹⁴⁴

وفي شهادة الكولونيل تشارلز بولز، قائد لواء الخيالة النيوزيلندية، بعد المجزرة يؤكّد فيها أنه تمّ تلقّي العديد من الرسائل من المستوطنين اليهود ومن قادة التشكيلات القتالية الأخرى تفيد بأن واقعة صرفند سيكون لها تأثير جيد جداً على الأصلانيين (العرب).¹⁴⁵

في العدد 61 من صحيفة دوار هيوم (بريد اليوم) الصهيونية الصادرة في القدس بتاريخ 5 كانون الأول 1920، والتي كان يرأس تحريرها زئيف جابوتنسكي، نشر قسم "في الصحافة العربية" ترجمة لمقال صادر في جريدة البلاغ البيروتية دون تحديد تاريخه. يتّهم كاتب مقال الصحيفة العبرية (دون ذكر اسم الكاتب، لذا يمكننا الافتراض أنه على الأغلب من كتابة محرر الجريدة ذاته جابوتنسكي) جريدة البلاغ بالاستمرار في شيطنة الصهاينة في فلسطين. في مقال البلاغ المنقول في صحيفة بريد اليوم الصهيونية ترد الرواية التالية لمجزرة صرفند الخراب على لسان أحد أعيان فلسطين:

"بالنظر إلى أهمية وضع قرية صرفند العربية، يحاول الصهاينة منذ سنوات شراء أراضي القرية، وعرضوا مبالغ كبيرة بمساعدة كبار موظفي الدولة الأتراك والحكومة الحالية. لكنهم، وعلى الرغم من كل هذا، لم ينجحوا في تحقيق أهدافهم، حيث رفض أهل القرية بيع أراضيهم للغرباء، ومن ثمّ حاول الصهاينة الوصول إلى هدفهم بإثارة البلبلّة وزرع الشقاق بين أهالي القرية. وفي شهر 12 [كانون الأول] من العام 1918، عسكر الخيّالة الأستراليون بالقرب من القرية، ما منح الصهاينة فرصة ثمينة. ومن اللحظة الأولى لإقامة المعسكر الأسترالي، بدأ الصهاينة تحريضهم ضدّ القرويين، وكانوا يرسلونهم إلى القرى العربية بحجّة أن كل ما يحتاجون إليه موجود في هذه القرى، ولكن عليهم استخدام العنف للحصول عليه. وبهذا، بدأ الجنود الدخول إلى القرية ويطلبون من القرويين ما يرغبون في الحصول عليه باللغة الإنجليزية. وحين لم يكن القرويون يلّبون طلباتهم لعدم معرفتهم باللغة الإنجليزية، كان الجنود يبدأون بضربهم وإهانتهم. وفي إحدى الليالي، لاح لحارس المعسكر شبح شخص في الظلام وناداه بصوت عالٍ أمراً إيّاه بالتوقّف، ومن ثمّ أطلق النار عليه وأصابه، ولكنه بدوره أطلق النار على الحارس، فصحا الجنود على صوت النار ووجدوا الحارس يلفظ أنفاسه الأخيرة، وبدأوا بملاحقة القاتل، ولكنهم لم يجدوا شيئاً غير عباءة ملقاة على الأرض. وفي الصباح التالي، توجّه الصهيويني بلومفيلد المعروف بين القرويين بـ"أبو يونس" إلى المعسكر وتطوّع لقص أثر القاتل... وبعد غيابه ساعات،

عاد إلى المعسكر وأخبر الجنود بأن آثار القاتل تدلُّ على أنه دخل قرية صرفند ولم يخرج منها، ومن ثمَّ سحب الجنود إلى القرية لإلقاء القبض على القاتل. قام الجنود بتعرية الرجال وتفتيش القرية، وحين لم يجدوا القاتل عادوا إلى المعسكر. وفي ذات الليلة، قام المستوطنون الصهاينة بتحريضهم على الانتقام من القرية، فقاموا بحرق القرية بزيت الزيتون والبنزين، وبارتكاب مذبحه في القرية. وتقدَّم القرويون بالشكوى للسلطات بأن الصهاينة يريدون شراء القرية، ولكنها لم تفعل شيئاً سوى نقل المعسكر إلى مكان آخر. وهذه ليست المرة الأولى التي يقوم فيها بلومفيلد بإخبار المعسكر البريطاني في الرملة بوجود جثة جندي كانت قد اختفت آثاره. ففي إحدى مُغر قرية عاقر [قضاء الرملة]، حيث فشل الصهاينة في شراء أراضي القرية، وشي بأهل القرية بكونهم قتلوا الجندي، وبعد ذلك هاجم الجنود القرية وكانوا على وشك إحراقها...¹⁴⁷

يذكر مقال البلاغ المنقول في صحيفة "بريد اليوم" صهيونياً باسم بلومفيلد، معروف بين الأهالي باسم "أبو يونس". وبعد جهد جهيد في قصِّ أثر "أبو يونس" في الشذرات المبعثرة في الأدبيات التاريخية لمستعمرات ريف الرملة، تبين بأن بلومفيلد المذكور في مقال البلاغ البيروتية المترجم هو أبراهام بلومفيلد، وقد أطلق عليه القرويون اسم "أبو يونس" تعريباً لاسم ابنه يوناتان.

وبلومفيلد اللعين هذا كان تلميذاً لحارس مستعمرة "بيتج تكفا" التاريخي أبرهام شبيرا، الملقَّب صهيونياً بـ "الجدع" و"الحارس الأسطورة"، وقد علَّمه "نظرية حراسة المستعمرات" القائمة على معرفة الثقافة العربية وبناء علاقات مع القرى المحيطة بها من موقع القوة. وقد كان بلومفيلد مسؤولاً عن حراسة مستعمرة "رحوفوت" خلال سنوات الحرب ومستشاراً لقوات "الأنزاك" التي اتخذت قيادتها العليا من المستعمرة مقرّاً لها. ومما ينقله الكاتب الصهيوني عموس دانيالي، من مستعمرة "رحوفوت" وأحد مؤرخيها، أن القوات الأسترالية طلبت من بلومفيلد اسم قادة المنطقة الأتراك الذين كانوا أشدَّ إيذاء لليهود في المنطقة للانتقام منهم. عُرف بلومفيلد بين الصهاينة بـ "المارد الأحمر"،¹⁴⁸ وهو توصيف

ساعد القرويين على تشخيصه. وقد عايش خلال تولّيه مسؤولية الأمن في مستعمرة ديران (رحوفوت) مرحلة اشتداد الصراع مع القرى المحيطة بالمستعمرة، وخاصة زرنوقة، فيما عرف بـ"حادثة زرنوقة"،¹⁴⁹ في 23 تموز 1913، والتي بدأت في كروم مستوطنة عيون قارة (ريشون لتسيون) وامتدّت إلى "نس تسيونا"، وانتهت بمقتل اثنين من حراس المستوطنة.

5.10 استدراك: خيط الدم من صرفند الخراب إلى كفر قاسم

في 20 تشرين الثاني 1957، قاد أبراهام شابيرا 'الجاهة' الصهيونية إلى كفر قاسم لإتمام مراسم الصلحة مع "دولة إسرائيل" على إثر المجزرة التي نفّذتها قوات "حرس الحدود" الصهيونية في القرية، بتاريخ 29 تشرين الثاني 1956. وقف شابيرا مخاطباً الحضور المكوّن من 400 شخص بالقول "إن العنف المتبادل بين العرب واليهود في هذه البلاد لم يبدأ في كفر قاسم، وإن العنف يولّد العنف."



مرثية رقم (37): أبراهام شابيرا يلقي خطاباً في الصلحة

المفروضة على أهالي كفر قاسم، بتاريخ 20 تشرين الثاني، 1957، لينثورا هالبرين، 2021. 150

نفط وحراب في ليل الجليل الطويل

"أقام وينغيت مركز قيادة وتدريب وحدات الليل الخاصة في كيبوتس "عين حارود" (قرية قومية، قضاء بيسان)، ليستفيد من ورشة الحدادة في الكيبوتس في شحذ الحِراب لتصبح طعناتها مميتة.¹⁵¹"

6.1 "الماسورة"

في نيسان من العام 1936، اشتعلت الثورة الفلسطينية الكبرى (1936-1939) مدسّنة أكبر مواجهة عسكرية مع الإمبراطورية البريطانية بين الحريين العالميتين الأولى والثانية، وأطول ثورة مسلّحة مضادّة للاستعمار البريطاني في القرن العشرين. كانت هجمات الثوار على أنبوب النفط العراقي الممتدّ من كركوك إلى حيفا، "الماسورة" كما أسماه الفلاحون الفلسطينيون، واحدة من كبرى التحدّيات التي واجهت الإمبراطورية البريطانية في هذه الثورة. في العام 1934، اكتمل إنشاء أنبوب النفط (التابلاين) لشركة نفط العراق البريطانية (Iraqi Petroleum Company IPC) لنقل النفط الخام من كركوك إلى ميناء حيفا، بلغ طوله حوالي ألف كيلومتر، منها 60 كيلومتراً في الأراضي الفلسطينية، تبدأ بالقرب من جسر المجامع على نهر الأردن حتى ميناء حيفا، وكانت الـ 60 كم هذه المقطع الوحيد من الخط الإمبريالي الطويل الذي "جنن" الإمبراطورية في سديم الخنوع العربي.

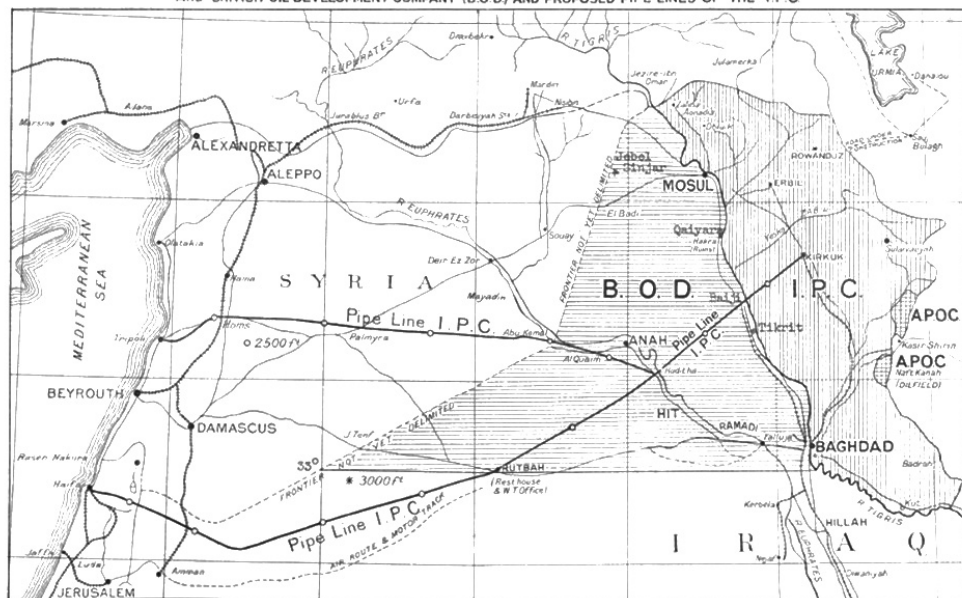
لم تقتصر أهمية الأنبوب البريطاني على النهب الإمبريالي لثروة العراق النفطية – وصلت صادرات النفط الخام في العام 1939 حوالي مليون ومئتي ألف طن عبر ميناء حيفا –¹⁵² وإنما كان النفط المتدفّق إلى مصفاة حيفا مصدر الوقود الأساسي للأسطول البريطاني في البحر المتوسط. ومنذ تموز العام 1936، بدأ الثوار بمهاجمة الأنبوب، إذ يشير الشهيد غسان كنفاني في دراسته عن ثورة 1936،¹⁵³ إلى أنّ نصف خط البترول عدة مرات، ابتداءً من 15 تموز 1936، كان ذا قيمة رمزية مثيرة للدهشة، تتمثّل في إدراك الثوار قيمة الخط

للمستغل البريطاني، كما يورد مواقع الهجمات على الخط: قرية كوكب الهوا، والبرية، ومستوطنة "مخني إسرائيل"، وإكسال، وما بين العفولة وبيسان، وتل العدس، وأرض المرج، وطمرة (الرُّعبية)، وكفر مصر، وجسر المجامع، وجنجار، وبيسان، وعين دور (أندورا).



مرثية رقم (38): مسار خط 'التابلاين' من كوك إلى حيفا لشركة نفط العراق داخل الأراضي الفلسطينية،
قمت بتحديثه على خريطة فلسطين الصادرة عن مركز الأبحاث الفلسطيني، مركز الأبحاث الفلسطيني-بيروت، 1966.

MAP OF IRAQ SHOWING THE OIL CONCESSIONS OF ANGLO PERSIAN OIL COMPANY (A.P.O.C.), THE IRAQ PETROLEUM COMPANY AND BRITISH OIL DEVELOPMENT COMPANY (B.O.D.) AND PROPOSED PIPE LINES OF THE I.P.C.





مرثية رقم (40): حراس مستعمرة "الونيم" (بسمة طبعون)

في موقع إحدى هجمات الثوار على أنبوب النفط في سهل مرج بن عامر، شلومي شتريت، 1938.¹⁵⁵

تركزت عمليات الثوار على "الماسورة" بالقرب من القرى الفلسطينية في سهل بيسان والجزء الشرقي من سهل مرج بن عامر، ونتج عنها توقُّف ضخَّ النفط لفترات متفاوتة، ما كان يعني بكل بساطة أن الفلاح الفلسطيني الثائر كان بمقدوره بوسائل متواضعة وقف إمداد الأسطول البريطاني في البحر الأبيض المتوسط بالوقود، عصب القوة الإمبراطورية العسكرية ووسيلة هيمنتها على أعالي البحار. وفي روايته الشفوية، يصف الحاج عزام محمد الشلي، من قرية دنة المهجرة، قضاء بيسان، هذه الآلية/العملية التي اتبعتها الثوار بالقول: "بحشوا ويكشفوا الماسورة وواحد يطبخها بصير البترول ينشَّب، وواحد يكون معه كعبولة شرايط مغرقة كاز بكحت في الكبريتة وبرميها على الماسورة وتهب النار للسما. " ¹⁵⁶

كانت النيران التي تضيء ليل الجليل وأعمدة الدخان الصاعدة منه نهراً والمرئية على مسافات بعيدة تشكّل ضربة معنوية قوية لهيبة وسطوة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. ¹⁵⁷ كما يورد الحاج عزام محمد الشلي، ¹⁵⁸ من قرية دنة المهجرة قضاء بيسان، الحوار التالي بين الثوار ومختار قرية دنة، كان قد نظمه شعراً أستاذ مدرسة قريته علي الخطيب، والذي جاء إليها مدرّساً من قرية أندور (عين دور):

"حضّرلنا ست زلام يكونوا بالحفر شُطّار

قالوا ستّة بالتكميل حضّر مشان الفصيل

خذلك جملة رجاجيل وطواري وقزمات كباّر

راحوا سُربة قوية بالمنكوش والطورية والماسورة اشعلت ناز

تاري العسكر مكمنين وسط الزرع قاعدين

قاموا مثل المجانين وعليهم أطلقوا النار

تسمع صوت البارود يشبه الصواعق والرعود

ثوارك راحت شرود واتخبّوا بظّل الحجار

فاتوا على القرية لثُمونا وبالبارود أرعبونا
 بالمضافة حطُّونا احضر وانظر شو صار
 أول ما علق الخطيب شطَّبوا جلده تشطيب
 وبالعصايه والقضيب كسروا إيده اليسار.¹⁵⁹

*طورية: أداة زراعية أكبر من المجرفة؛ القزمة: الفأس الكبيرة؛ المنكوش: الفأس؛ شربة: مجموعة.

وإذا ما حضرت سيرة العمليات ضدَّ "ماسورة" الإمبراطورية في فلسطين، حضرت معها سيرة المجاهد القائد الشهيد حسين علي الذياب-الزبيدات من عرب الصقر، والذي لا تُذكر عمليات نسف وتخريب أنبوب النفط إلا وذكره أهالي القرى المجاورة للأنبوب. وقد استشهد في العام 1938 في وادي دانيال (نسبة إلى مقام الشيخ دانيال) في قرية دنة المهجَّرة، خلال معركة مع الإنجليز (على الأغلب مع فرق الليل الخاصة) أثناء مهاجمة خط البترول، بعد مشوار جهادي طويل في معارك الثورة الكبرى في وادي الملح ووادي العاصي وتل الشوك، ومهاجمة مخفر بيسان لتحرير الأسرى ودوائر الحكومة والمستعمرات الصهيونية. وقد تمَّ تهريب جثمانه الشريف بعد استشهاده إلى قرية فقَّوعة، قضاء جنين، حيث دفن فيها. ويقول الحاج محمد الأشوح، من قرية الحمرا المهجَّرة، مسقط رأس الشهيد حسين علي الذياب، إن الثوار حملوا جثمان الشهيد على جمل إلى قرية فقَّوعة بعد معركة على خط البترول، على حدِّ وصفه، ودفنوه في دار، "وصبُّوا" عليه، إذ كان الإنجليز يبحثون عن جثته لحرقها.¹⁶⁰

يحدِّد الحاج عزام الشلبي في مقابلته أيضاً مكان استشهاد القائد حسين علي الذياب-الزبيدات من عرب الصقر، في وادي دانيال، الذي يقع ضمن أراضي القرية، خلال معركة نشبت مع قوة بريطانية كانت تكمن للثوار بين الصبر، بعد مهاجمة الثوار لخط البترول، مضيفاً أن فلاحي قرية دنة أقاموا له بعد استشهاده مقاماً من الحجار عند بقايا دمه، وكانوا يزورون المقام في المناسبات بعد زيارة مقبرة القرية ويقرؤون له الفاتحة.¹⁶¹

وقد خلّد الشاعر توفيق زَيّاد ذكرى الشهيد حسين الزياب في قصيدته المشهورة "سرحان والماسورة" وغنّتها فرقة أغاني العاشقين:

“ كان يمشي نحو تلّ الحارثية

حيث ماسورة بترول شقية

تحمل الخير الذي يدفع

من أرض الشعوب العربية

لبلاد أجنبية

كان يمشي نحو تلّ الحارثية

وبجنبيه ديناميت ونار وفتيل

وعلى كتفه كانت... بندقية

...

أه يا ماسورة البترول... يا بنت الحرام... انتظري!

إن سرحان الشقيّ ابن الشقية

قادم

رغم انصباب المطر

وبعينيه بروق شتوية.¹⁶²

وقفت الإمبراطورية عاجزة أمام نجاح الثوار "ولاد الحلال" في الاستمرار بضرب "الماسورة بنت الحرام"، بعد أن جرّبت كل ما يمكن تجريبه من عمليات عسكرية وإجراءات قمعية لحماية الأنبوب. وقد شمل ذلك تحويل الجيش البريطاني المنطقة الممتدة على مسافة 200 متر على جانبي الأنبوب إلى "منطقة حرام"، أي حقول للموت، تُطلق فيها النار على كل

من يقترب، منذ آب 1936، إلى جانب تسيير الدوريات الراجلة والراكبة، وإنشاء مواقع عسكرية على طول خط الأنبوب، وفرض غرامات باهظة على القرى القريبة من مواقع الهجمات. وعلى ضوء هذا الفشل، قدّم الضابط أورد وينغيت مقترحاً للقيادة العسكرية البريطانية بإنشاء وحدة عمليات خاصة لحماية خط النفط. وهكذا وُلدت فرق الليل الخاصة (Special Night Squads) الأنجلو-صهيونية بقيادة وينغيت ذائعة الصيت في الوحشية الاستعمارية في سيرة الدم الفلسطيني.

TUESDAY JUNE 21 1938

PUNCTURING THE I.P.C. PIPE LINE

NINE TIMES IN FIVE NIGHTS

AFFULE, Monday. — The I.P.C. Pipeline was punctured and the escaping oil ignited tonight near Kaukab el Hawa.

This was the ninth attack on the line in thei past five nights.

مرثية رقم (41): ثقب أنبوب شركة نفط العراق تسع مرات في خمس ليالٍ،

صحيفة بالستين بوست 21 حزيران 1938، أرشيف الصحافة العربية، المكتبة الوطنية الصهيونية، 1938. ¹⁶³

لم تبدأ قصة الصهيانة مع خط النفط العراقي إلى حيفا مع فرق الليل الخاصة الأنجلو-صهيونية، وإنما للقصة بدايات أقدم تعود إلى العام 1926. فقد أدركت الحركة الصهيونية، بمبادرة كل من يوسف ليفي، صاحب شركة تطوير ميناء حيفا،¹⁶⁴ و"اللجنة الصهيونية المعنية بفلسطين" (Palestine Zionist Executive) ومجموعة من المصرفيين والصناعيين الصهيانة الإنجليز، الأهمية الاستراتيجية لمدّ هذا الخط إلى حيفا ضمن التخطيط الصهيوني المستقبلي للمدينة كميناء استراتيجي ومركز صناعي للدولة العبرية القادمة بالتقاطع مع المصالح الإمبريالية البريطانية. كما أن المشاركة الصهيونية الفاعلة في فرق الليل الخاصة، التي شكّل المجندون الصهيانة أغلبية عديدها، في حراسة أنبوب النفط والقمع الوحشي الانتقامي للقرى الفلسطينية... لم تكن بغرض خدمة مصالح الإمبريالية البريطانية، وإنما أساساً للدفاع عن مصلحة صهيونية استراتيجية عليا في تأسيس البنية التحتية للدولة العبرية القادمة. وكان قد سبق فرق الليل الخاصة قيام النواطير اليهود في المستوطنات بحراسة "الماسورة" المارة بالقرب من المستعمرات الصهيونية وتنفيذ كمائن للفلاحين الثوار،¹⁶⁵ لا بل مؤلت الوكالة اليهودية بعض رواتب الجنود الإنجليز المكلفين بحراسته.¹⁶⁶

6.2 أورد ونغيت ودرس يهو شواع بن نون

مع اغتيال لويس أندروز، حاكم لواء الجليل، في 26 أيلول 1937، دخلت الثورة المسلّحة مرحلتها الأكثر عنفواناً. وأندروز هذا أسترالي الجنسية وصهيوني مسيحي، وطأت قدماه النجسة أرض فلسطين أول مرة خلال الحرب العالمية الأولى ضمن فرق "الأزراك"، ومن ثمّ عمل في الإدارة العسكرية التي أسّسها ألنبي في فلسطين، ولاحقاً ضمن سلطة الانتداب. ومع وصول العمليات المسلّحة للثورة إلى أوجها، تسلّل الشعور بفقدان السيطرة إلى نفوس قوات الإمبراطورية في فلسطين، والهلع من تلاشي الهيبة الإمبراطورية في نفوس الفلاحين الفلسطينيين. ودائماً ما كان الهلع الإمبريالي من فقدان الهيبة، بصفتها المقياس الأكثر صدقاً للهيمنة على المحكومين، مقدمة لتساعد وحشية وبربرية المستعمرين. وضمن إطار علم الاجتماع السياسي للهيمنة، علينا فهم هذه الوحشية لا بصفتها تعبيراً عن سادية

وخلل نفسي يولّد جنوناً دموياً مفرطاً، كما يتمّ عادةً تأطير وحشية فرق الليل الخاصة، مع التشديد على أن هذه الوحشية المفرطة تشكّلت في اللقاء الإمبريالي مع الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، دون إغفال الدوافع العملية الإمبريالية البريطانية المتمثلة بضرورة قمع الثورة بأسرع وقت لاعتبارات إعادة تنظيم توزيع القوات الإمبراطورية مع بداية نذر الحرب العالمية الثانية التي كانت تلوح في الأفق.

ضمن هذه الظروف، بدأ عمل فرق الليل الخاصة (SNS) الأنجلو-صهيونية من حزيران 1936 حتى تموز من العام 1938، التي أسّسها وأشرف على تدريبها وعملياتها ضابط الاستخبارات الأسكتلندي الأصول أورد ونغيت، المعروف بـ "الصديق" عند الصهاينة. كان وينغيت مسيحياً صهيونياً متطرّفاً، وصل إلى فلسطين كضابط استخبارات في أيلول من العام 1936، وبعد قيامه بدراسة وتقييم عمل القوات البريطانية في قمع الثورة عموماً، وحماية أنبوب شركة نفط العراق على وجه التحديد، وصل إلى قناعة بعدم فاعليتها وقَدّم رؤية لفلسفة قمعية بديلة تقوم على تشكيل "وحدات صغيرة" قادرة على العمل بسرّية في الليل تبادر بالهجوم على القرى الفلسطينية ولا تعمل بمنطق ردّ الفعل كوسيلة فعّالة في قمع الثورة الفلسطينية. ولا يمكننا اختزال دوافع وينغيت في تشكيل فرق الموت الأنجلو-صهيونية هذه بالرجوع إلى خلفيته العقائدية فقط، وإنما كانت دوافعه أيضاً إمبريالية عملية تتمثّل في النقص في القوات البريطانية، ولذا كان اللجوء للقوة الصهيونية المقاتلة حلاً لهذا النقص.

وفيما تزخر الكتابات الغزيرة حول وينغيت، والذي يعتبر أكثر عسكري بريطاني ألّف عنه كتب ودراسات في تاريخ العسكرية البريطانية الحديثة، بتمجيد عبقريته العسكرية في ابتكار فلسفة عمل القوات الخاصة خلف الخطوط وخاصة في الليل، تدخل سيرة وينغيت وفرق الليل الخاصة في سيرة سِنجة سَيّ يامنة من باب اعتباره الحربة (من طراز 1907) سلاحاً أساسياً لإرهاب الفلاحين الفلسطينيين، وكذلك في عملية بناء شخصية المقاتل الصهيوني الدموية التي ما زالت فاعلة إلى يومنا هذا، بالنظر إلى كون وينغيت هو مؤسّس

نواة الجيش الصهيوني وعقيدته القتالية الإرهابية،¹⁶⁷ وتدرَّب على يديه قادته المستقبليين من موشيه ديان ويغال ألون وإسحق ساديه وتسفي برينر... وقد وصف بن غوريون شارون مرّة بكونه يذكره دائماً بوينغيت.

وتدخل فرق وينغيت أيضاً في سيرة لعنة النفط العربي، بصفتها فصلاً آخر منسياً في هذه السيرة الدموية التي اكتوى بنارها الفلاحون الفلسطينيون حقيقة لا مجازاً. يورد الباحث ليم جوردان¹⁶⁸ الشهادة التالية لأحد مجرمي فرق الليل الخاصة: "كانت بركة من النفط تزفر باللهب ملاصقة لأنبوب النفط بعد استهدافه بالقرب من إحدى القرى، وحين أنكرت مجموعة من أهالي القرية خلال استجوابهم معرفتهم بالفاعلين، أمرنا وينغيت برميهم في وسط البركة المشتعلة... وفي إحدى المرات، وصل وينغيت إلى مكان تخريب الأنبوب، ومن ثمّ قام بعملية انتقامية في قرية قريبة من موقع الهجوم، حيث أجبر الفلاحين على القدوم إلى موقع العملية حيث كانت بركة من النفط قد تكوّنت، وأمر الجنود بحشو التراب المجبول بالنفط في أفواههم حتى بدأوا بالتقيؤ."

لقد كانت فرق الموت هذه، كما وصفها جون بيرمان، "ماكينات قتل جيدة التشحيم".¹⁶⁹ فقد اهتمت هذه الفرق بأدقّ التفاصيل لكي تكون عملياتها مميتة: من شحذ الحراب حتى نوع الطلقات التي زُوِّدت بها المسدسات، إذ استخدمت طلقات خاصة من طراز (0.455 MKI ذات رأس مصنوع من الرصاص بنسبة 99 %، لتسبّب إصابات قاتلة مؤكّدة. وقد جرى تصميم هذا النوع من الذخيرة خصيصاً لأعداء بريطانيا غير المتحضرين (Savage Foes)،¹⁷⁰ وتعود بداية استخدامها إلى حروب بريطانيا الاستعمارية في أفريقيا وأفغانستان.

منذ وصوله إلى فلسطين، بدأ وينغيت تعلّم العبرية بالتواصل مع قيادة "الييشوف" والتعاون الاستخباراتي معها، وقدّم مقترحاً لحاييم وايزمان لبناء جيش الدولة العبرية القادمة في أعقاب توصيات "لجنة بيل" بتقسيم فلسطين في العام 1937. ومن ثمّ بدأ بزيارة المستوطنات مسلّحاً بتوصيات من حاييم وايزمن وإلياهو غلومب، وبعد أخذ الموافقة من القائد العام

للقوات البريطانية في فلسطين، ويفل، بدأ بإنشاء فرق الليل الخاصة في "كيبوتس عين حارود" (قرية قومية-بيسان)، والذي حوى معسكر تدريب ومركز للاستخبارات العسكرية. تكوّنت الفرق في بدايتها من 40 جندياً بريطانياً و130 مقاتلاً صهيونياً من صفوف الهجاناه، وكان جلّها لاحقاً من القوات الصهيونية. أما المبنى الهيكلي لهذه الفرق الليلية، فكان كالتالي: وينغيت القائد العام، يليه ضابط ارتباط صهيوني مع الوكالة اليهودية، وتولّى ثلاثة ضباط بريطانيون قيادة كلّ فرقة بمعاونة ضابط صهيوني. وقد توزّعت معسكراتها كالتالي: القيادة العامة في "عين حارود"، وفرقة في مستعمرة "حانيتا" (حانوتا- عكا)، وفرقة في مستعمرة "أيليت هشاحر" (يارد-اصفد)، ودُفّعت رواتبهم من شركة نفط العراق¹⁷¹ والوكالة اليهودية، التي قامت أيضاً بتسليح المقاتلين الصهاينة في الفرق، وبالتحديد ببنادق "لي انفيلد" القصيرة المذكورة أعلاه المثبت عليها الحراب (من طراز 1907).



مرئية رقم (42): أورد وينغيت يستجوب مجموعة من القرويين خلال حملة إرهابية

على إحدى القرى الفلسطينية، روبرت كينج-كلارك، 1938.



مرتبة رقم (43): إرهابيو فرق الليل الخاصة على جبل الدجي ويظهر الأفق جبل الطابور (الطور)، روبرت كينج-كلارك، 1938.



مرتبة رقم (44): جندي بريطاني ينخر بحريته فلاحاً فلسطينياً قرب سخنين

لإجباره على العمل بالسخرة في تعبيد الطريق، شلومي شترت، 1938. ¹⁷²

6.3 لماذا الحربة طراز 1907؟

اعتبر وينغيت الحراب (من طراز 1907) السلاح الهجومي الأساسي لفرق الليل الخاصة في ميدان عملياتها الذي أسماه "حقل الصيد"، وذلك بالاستناد على "عقيدة الصدمة" التي تتجسّد عملياتياً بالتسلّل الصامت إلى الهدف (القرية الفلسطينية) ليلاً، ومن ثمّ الانقضاض عليها بالحراب. وفي حال انكشاف الفرق أثناء تقدّمها، يتمّ اللجوء إلى القنابل اليدوية (رمّانات ميلز)، والتي وصفها دليل قيادة المشاة في الجيش البريطاني للعام 1938¹⁷³ بأنها سلاح ملائم للحرب غير الحضارية، ومن ثمّ الانقضاض وتمزيق الأجساد بالحراب (من طراز 1907). أمّن وينغيت بالحربة كسلاح إرهابي نفسي يترك وراءه الكثير من الدم والأوصال المقطّعة محدثاً تأثير الصدمة على الفلاحين ومناسباً للهجمات الليلية الصامتة. ولم يقتصر استخدام الحربة في تنفيذ الاختيالات، وإنما استُخدمت أيضاً أداةً للتعذيب في عمليات التحقيق الميدانية. وكانت الحربة السلاح المناسب لمسعى وينغيت في بناء المقاتل الصهيوني الجديد المبادر للهجوم والمتحرّر من عقدة الجدران على أنقاض المقاتل الصهيوني القديم الذي اعتاد على الدفاع عن المستوطنات من وراء الجدران. وهنا يكمن الفارق ما بين التراث الاستعماري للحربة التي مُجّدت كسلاح فروسى في عصر الحروب التكنولوجية كما فصّلتْ أنفأ، إذ لم يكن وينغيت معادياً للتكنولوجيا.¹⁷⁴ وفي كيوبتس "عين حارود"، بدأ وينغيت تدريباته للمقاتلين الصهاينة على القتال الليلي، مع تركيز خاص على الحربة من طول 17 إنش (من طراز 1907).¹⁷⁵ وبالفعل، أثمرت تدريباته في خلق عصابات من الصهاينة، المتعطّشين للدم الفلسطيني النافر بطعنات الحراب، المشبعين بعقيدة الانتقام كعقيدة عسكرية، حتى تساءل يوماً الجنرال ديل¹⁷⁶ عمّا يمكن أن تؤوّل إليه "الأساليب القذرة" لهذه الفرق اليهودية، والتي حتماً ستؤدي إلى ارتكاب المزيد من المجازر الانتقامية في المستقبل.



مرثية رقم (45): شعار فرق الليل الخاصة، أبراهام عكيبا، 1938.¹⁷⁷

وكما كانت الحربة ثلاثم القتل التمثيلي الرادع لتعليم الفلاحين الدرس القاسي (الردع)، كان وينغيت يعظ الصهاينة في دروسه التثقيفية في "عين حارود" بأن غلطة النبي يهُوشواع التوراتي تكمن في أنه لم يكن دمويًا¹⁷⁸ بما فيه الكفاية مع الكنعانيين.

في 12 حزيران 1939، أرسل جمال الحسيني، رئيس وفد اللجنة العربية العليا، رسالة احتجاجية إلى رئيس لجنة الانتدابات الدائمة في عصبة الأمم، أورد فيها تفاصيلٍ تقشعُرُ لها الأرواح لجرائم فرق الليل الخاصة والجيش البريطاني واصفاً إيّاها بـ"فظاعات عصور الظلام"، شملت: كيّ الأجساد بالقضبان الحديدية المحمّاة بالنار، والجُلْد، وخلع الأطراف، وسحب الأعضاء التناسلية، واغتصاب النساء، وتدمير الممتلكات، والتجويع.¹⁷⁹

عادةً ما يتمُّ تأطير مثل هذه الفظاعات ضمن تاريخ العنف الإمبريالي البريطاني الطويل، كما تفعل "كارولين إلكنز" على سبيل المثال.¹⁸⁰ ولكن في حالة فرق الليل الخاصة، شكّلت المستعمرات الصهيونية دفيئات من نوع خاص لنشوء مثل هذه الفظاعات بصفتها بؤراً للتوسع الاستيطاني تتعامل مع ما يحيطها من قرى فلسطينية بصفتها تخوماً برسم الإبادة والتهجير، بما يتّسق مع تاريخ حروب التخوم في المستعمرات الاستيطانية. يصف ريكس-كينج كلارك، قائد إحدى فرق الليل الخاصة، التحوُّل الذي مرَّ به الجنود

البريطانيون خلال عملهم في هذه الفرق بالقول: "كنا كلِّما قادنا وينغيت أعمق في المعسكر اليهودي، كلِّما أصبحنا أكثر خروجاً عن القانون".¹⁸¹ ومن هنا، يمكننا فهم توسُّع عمل هذه الفرق خارج مسرح عمليات أنبوب النفط العراقي شمالاً، بتنفيذها عمليات انتقامية لتصفية حسابات المستوطنات مع القرى العربية المحيطة، كالتى نفَّذتها فرق الموت هذه في قرية جُردية على الحدود اللبنانية بقرار من الهاجناه انتقاماً من عملياتها ضدَّ مستوطنة "حنيتا". وفي سهل الحولة، نفَّذت هذه الفرق العديد من العمليات لتفكيك بنية المقاومة في السهل لتمكين كمال حسين أفندي من بسط سلطته على المنطقة بعد تحوُّله من معسكر الثورة إلى معسكر المعارضة النشاشيبية العميلة والتواطؤ مع اليدشوف،¹⁸² وذلك لتسهيل تسريب أكبر مساحة ممكنة من أراضي الحولة للصهاينة، والتي أصبحت ذات أولوية استيطانية عالية بسبب تخوُّف الصهاينة من إمكانية ضمِّ منطقة الحولة وإصبع الجليل إلى الدولة العربية بسبب الغالبية السكانية العربية. من هنا، يمكننا القول إن الحراب كانت ملائمة لممارسة الوحشية الاستعمارية الاستراتيجية ولم تكن تعبيراً عن سادية وإثباتاً للرجولة، هذه الوحشية التي تلائم التعامل مع الطبيعة العربية للفلاح الفلسطيني كما يقول اللّعين ريكس-كينج كلارك.¹⁸³ وفي هذا السياق، يأتي نقد ريكس-كينج كلارك¹⁸⁴ للمبالغات في وصف عمليات وينغيت كعمليات عسكرية معقّدة كما عند كاتب سيرته سايكس، وكما عند الباحث الصهيوني موشيه شتريت الذي يستमित في تحليل البعد العمليّاتي العسكري لهجمات فرق الليل الخاصة على القرى الفلسطينية، ويأخذ عملياتها في قرى كوكب الهوا وخربة لد العوادين ودثورية كحالات دراسية، وذلك للردِّ على المؤرخين الصهاينة الجدد من أمثال توم سيغيف،¹⁸⁵ الذين فكَّكوا أسطورة عبقرية وينغيت العسكرية بوصفه بـ"المعتوه المجرم".

كما يتّضح من رسالة الحسيني، ومما قاله كلارك،¹⁸⁶ أنه كان يتمُّ التخلُّص من التقارير الميدانية لعمليات فرق الليل الإجرامية من قبل السلطات العليا للجيش، وبأن ما وصلنا من وقائع عينية هو رأس الجليد الظاهر من هذه الفظائع التي تضجُّ بها القبور الصامتة للمعدّبين في أرض فلسطين.

فقد تركّزت العمليات العسكرية لفرق الليل الخاصة في العمليات الانتقامية أساساً في القرى الفلسطينية، والتي جاءت بعد الهجمات على خطّ البترول وعلى المستوطنات الصهيونية أو على قرى صُنِّفت بأنها مساندة للثوار. وكانت هذه العمليات عبارة عن حملات للإعدامات وحفلات التعذيب، بالمعنى الحرفي، والتي كان وينغيت يختمها بخطبة في أهالي القرية مفادها بأن ما جرى لهم هو درس عليهم تعلّمه... ومن هذه العمليات الانتقامية التي وصلنا فيها وقائع لاستخدام الحربة (من طراز 1907) في عمليات فرق الليل الخاصة ومصدرها مذكرات وشهادات مجرميها، يورد اللعين ريكس-كنج كلارك¹⁸⁷ خلال حديثه عن مجزرة-معركة خربة لد العوادين في سهل مرج بن عامر، بتاريخ 3 أيلول 1938، أنه بعد تطويق القرية قام مقاتل صهيوني يُدعى ديفيد من كيبوتس "دغانيا" (خربة أم الجوني-طبريا) بالانقضاض على أحد أهالي الخربة، وهو مختبئ وراء جدار، ومزّقه بالحربة، ومن ثمّ خرج شاخص العينين والحربة بيده غارقة بالدم حتى مقبضها. ويعلّق كلارك بأنها كانت المرة الأولى في حياة الجنود الإنجليز التي يشاهدون فيها قتلاً بالحربة بكل هذا الغضب. وفي نهاية "المعركة"، كان ديفيد منتشياً بجريمته وقام باستعراض حربته المدماة في الكيبوتسات اليهودية المجاورة.¹⁸⁸ يروي الحاج غالب عيد يعقوب،¹⁸⁹ من خربة لد العوادين قضاء حيفا، في مقابلة التاريخ الشفوي على موقع فلسطين في الذاكرة أن الخربة كانت معقلاً للثوار، وأن المعركة المذكورة أعلاه استشهد فيها الشيخ طه (الشيخ طه الحوراني من قرية صرفند قضاء حيفا، وكان قائد فصيل تابع للقائد يوسف أبو درة)، واستشهد معه محمود نمر الدرباس ومحمد أحمد السلمان وعيسى مفلح أبو راشد، وكلّهم من الطيرة. ويضيف أن المعركة نشبت بعد تطويق القرية لمحاصرة الثوار الذين كانوا يبيتون فيها، وجاهد أبناء العوادين مع الثوار، واستشهد عدد منهم كيعقوب الحسين ونزال السمير رحمهما الله. وبحسب مقابلة أخرى مع الأستاذ شريف السيد أحمد من قرية قومية-بيسان،¹⁹⁰ فإن "الإنجليز جاءوا بشهيد من خارج القرية لدفنه فيها يُدعى الشيخ طه، وكان مقتولاً بطلق ناري في الرأس وعلى جثته آثار الطعنات بالسنج في كل مكان."

وفي ليلة 11 آب 1938، هاجمت إحدى فرق الليل الخاصة، فرقة ريكس-كينج كلارك تحديداً، مجموعة من أهالي قرية حطّين وقتلت خمسة من أبناء القرية، اثنان منهم مُزّق جسداهما بالحراّب. وما يجب التنويه إليه هنا أنه عادة ما تُذكر معركة حطّين (1187) وهزيمة الصليبيين فيها في سياق الحديث عن العمليات العسكرية في القرية، ويورد الباحثان فادي السلايمة ومجدي السعدي¹⁹¹ من أسماء شهداء هذا الهجوم: الشهيد سعيد محمد صالح الخطيب، والشهيد محمود رشيد الخطيب، وربما هما الاثنان اللذان استشهدا بالحراّب لأن الباحثين يقولان إنهما استشهدا دون قتال. وفي 19 تشرين 1938، نفّذت فرق الليل بقيادة بيردين عملية ثانية انتقامية في قرية حطّين، يسمّيها الباحثان مجزرة حطّين،¹⁹² أسفرت عن استشهاد ستة من أهالي حطّين،¹⁹³ والشهداء هم: يوسف جنيد (فراضية)، ونمر خالد أبو سويد، وسليم البنهس، وأحمد حسين أبو سويد، وعبد الله العناني، ومصطفى الأحمد، وقد شارك في هذه المجزرة الإرهابي يغال ألون.¹⁹⁴ وقد تكررت مجازر فرق الليل الخاصة، إذ أعدموا واحداً من كل ثمانية أشخاص في قرية كفر مصر (بيسان)، ونفّذوا مذبحة ضدّ عرب البشاوة (بيسان) راح ضحيتها عشرة شهداء، بالإضافة إلى الإغارة على قرية دُبورية (الناصرية)، والتي يأتي على ذكرها الجندي الصهيوني في فرق الليل الخاصة حايم لافكوف، بالقول: "بعد انتهاء معركة دُبورية، تمّ العثور على عربي مختبئ في كومة قشّ. توسّل العربي عدم قتله فانهال عليه الجنود اليهود بالضرب، ومن ثمّ نزع جندي بريطاني حربته عن بندقيته وقام بعمل 'سلطة' من العربي.¹⁹⁵ في التشبيه التهكمي للافكوف لتمزيق ابن دُبورية بالحربة بـ"عمل السلطة" دلالة واضحة على المدى الذي وصلت إليه اعتيادية ممارسة القتل التمثيلي بالحربة في فرق الليل الخاصة. وعلى الأرجح أن المغدور في هذه الجريمة هو الشهيد نجيب عزازية الذي تروي الحاجة أم علي، من قرية قومية، قضاء بيسان، وذات الأصول الدُبورية، قصة استشهادها التي تعرف تفاصيلها عن قرب لكون الشهيد نجيب عزازية كان متزوجاً من خالتها بهجة بكر الياسين، فتقول: "جوز خالتي كان يعشّي الجمال هذا في دُبورية، فاتوا عليه وقدّوه، وحمل مصارينه في يديه، قال يا بهجة أمر ري... هي شافته هيك غيّبت... وظلّ حامل مصارينه تمّنه قرط ومات...

وهي من خوفتها ورعبتها غيبت وظلّت بيحي سنة، وماتت الثانية... كان على أيديها بنت عمرها سنة ماتت معها من عمال الإنجليز.¹⁹⁶



مرثية رقم (46): صورة لمقاتلي فرق الليل الخاصة خلال قيامهم بعملية انتقامية في

قرية كوكب الهوا بعد هجوم على خط النفط، بيتمونا، 1938¹⁹⁷

في نهاية تموز من العام 1939،¹⁹⁸ حُلّت فرق الليل الخاصة بعد أن أدّت مهمتها الإرهابية في قتل أهل البلاد. سال حبر كثير عن خلفيات قرار حلّها، من قلق السلطات البريطانية من تعاظم قوة اليشوف ومروراً بما قيل إنه تخوُّف قيادة الحركة الصهيونية من أثر العمليات الانتقامية العكسي على المستوطنات وزيادة عدائية الفلسطينيين لها، وصولاً إلى الدوافع الاقتصادية المتمثلة بقرار شركة النفط العراقية بوقف تمويل هذه الفرق. وبصرف النظر عن الدافع، فإن النظر بأثر رجعي إلى تجربة فرق الليل الخاصة يقودنا إلى القول إنها كانت

لحظة فارقة في التاريخ الاستعماري لفلسطين، وبالتحديد من حيث تشكيل العقيدة الإرهابية للجيش الصهيوني، ومن حيث كون عملياتها شكّلت تمريناً حياً للقادم من المجازر الصهيونية. وبالطبع تبقى الدراسة التاريخية الشاملة لهذه التجربة لم تُنجز فلسطينياً بعد، وذلك على الرغم من وجود العديد من الكتابات حولها، وبالتحديد ضرورة التأريخ المفصّل لها من التجربة التاريخية الحية للفلاحين الفلسطينيين كمقاومين وكضحايا لها. وفي نهاية هذا القسم، أقدم ما أمكنني جمعه من أسماء القرى والخرب الفلسطينية التي سال فيها خيط الدم الفلسطيني المسفوك على يد هذه الفرق، ومنها: طمرة، دثّة، كفر مصر، نين، نوريس، جريدة، الجاعونة، سعسع، كفر برعم، تلّيل، الدّجي، البيرة، عرب البشّاتوة (جسر الجامع)، كوكب الهوا، بيسان، المجدعة، فقّوعة، سيرين، حطّين، الطّيبة، كفر مندّا، سرجونة، دُبورية، مسحة، خربة لد العوادين، عرب الزّيد، الحولة، سديانة، الناعورة، أم الزينات، شطّة، الحمرا، صلحة، إكسال، إجزم، جبّع، عين غزال، سيلة الظهر، الخالصة، ملّاحة، شوكة التحتا، طوبا، خربة الزاوية، النعيمة، هونين، البطيحة، لوبيا، الصنوبرية، تل الشوك...



مرثية رقم (47): كاريكاتور رسمه مقاتل صهيوني في فرق الليل الخاصة بصور

هجوماً بالحراّب على قرية عربية، بيتمونّا، 1938¹⁹⁹

6.4 استدراك: الطريق إلى عين حارود

في رواية الطريق إلى عين حارود، (1984)²⁰⁰ للكاتب الصهيوني عاموس كينان، يهرب بطل الرواية رافي من مدينة "تل أبيب" بعدما تحوّلت إلى جحيم في أعقاب انقلاب عسكري وحرب أهلية انتصرت فيها الفاشية. كانت غايته الوصول إلى كيبوتس "عين حارود"، "عين حارود" المدينة الفاضلة والحصن الأخير للديمقراطية والمساواة والمعتقل الأخير للمتمردين على النظام الفاشي الجديد. لا يمكن لأحد أن يدلّ رافي على الطريق غير العربي محمود، العارف بدروب البلاد. كان الرحيل إلى "عين حارود" في الرواية عودةً إلى بدايات المشروع الصهيوني الريادي الاشتراكي الديمقراطي قبل أن ينحرف المشروع عن سكّته نحو الفاشية. فمن "عين حارود" ستكون البداية الجديدة لـ "إسرائيل" الليبرالية الجديدة. وبعد رحلة طويلة في دروب البلاد والتاريخ، يصل رافي إلى وجهته ولا يجد شيئاً! اعتُبرت رواية كينان بدايةً لما يُعرف بـ "الأدب القياسي" (الأبوكاليتي) العبري المهجوس بفساد "إسرائيل" وتفسُّخها. وقد تُرجمت إلى العربية فور صدورها،²⁰¹ واحتُفي بها فلسطيناً وعربياً لحوولتها النقدية لعنصرية "إسرائيل". كما عادت الرواية مرّة أخرى إلى الأضواء بعد الصعود اليميني الفاشي، وما رافق هذا الصعود من صراع أهلي داخل المجتمع الصهيوني في العام 2022. لم تتطرّق القراءة العربية والفلسطينية والعبرية للرواية إلى المفارقة/النبوءة في اختيار "عين حارود" نقطة لبداية جديدة، إذ تمثّل "عين حارود" في السردية الصهيونية نوستالجيا إلى الماضي الصهيوني الذهبي وحياة "الكيبوتس" الطلائعية، والمساواة، والليبرالية النقيض لفاشية الحاضر. ولكن في سيرة الألم الفلسطينية، فإن كيبوتس "عين حارود" هو الحصن الأول للفاشية الصهيونية، في معسكرات تدريب فرق الليل الخاصة، حيث تبلورت العقيدة الإرهابية للجيش الصهيوني، وفي ورشة الحدادة فيه شحذ الطلائعيون حراب الإمبراطورية لتقطيع أجساد الفلاحين الفلسطينيين بأعلى كفاءة... لا بدايات جديدة في "إسرائيل"، بل هو عود أبدي إلى موقع الجريمة الأولى... إلى "عين حارود".

أطلقت "إسرائيل" اسم "مركبات جدعون" على المرحلة الثانية من حرب الإبادة على غزة في أيار 2025، قيل الكثير عن الأصول التوراتية للاسم ولكن جدعون "إسرائيل" الفاشية وُلد حقيقة لا مجازاً في "عين حارود" في العام 1938، حيث أطلق أورد وينغيت اسم "جيش جدعون" على فرق الليل الخاصة الإرهابية، وبقيَ يستخدمه بين جنوده بعد أن رفضت القيادة العسكرية البريطانية اعتماده رسمياً.

بمثابة خاتمة لسيرة تآبي الختام

"يروي القرويون ويغنّون في وقت واحد معاً، وفي الرواية تجتمع أصوات كل جنسهم البشري، شعراء بامتيّاز، ليسوا قاري طبول ولا حاملي دفوف، أو منشدي إيقاعات حزينة. إنهم أصحاب أقدم أشكال الملاحم البطولية التي تقصُّ قصة شيخ يخرج من جي الفقراء في حيفا رفقة عدد قليل من الأصحاب ليواجه جيش إمبراطورية لم تغب الشمس بعد عن أسنّة حرايها، وهو يعلم أنه لن يهزم هذا الجيش، وأنه سيسقط قتيلاً بين الأحرّاش، وقصة شباب سيولدون في مقبل الأيام بعد عشر أو عشرين أو خمسين سنة، وينتشرون في الأحرّاش ذاتها وفي المخيمات حاملين الاسم ذاته، وأسماء أصحابه، وهم يعرفون أنهم سيسقطون قتلى بين الأشجار وتحت حطام البيوت أيضاً. هل اجتمعت في ملحمة القسّام البسيطة، بحكايتها والغناء الذي رافقها، ملايين الأصوات الممكنة والكامنة؟ في هذه الملحمة لم تنفصل الرواية عن الأغنية، والمفاجئ، والذي كان يمكن أن يصعق ضباط الإنجليز الذي أرسلوا جنودهم إلى أحرّاش يعبد لو ظلّوا أحياء، أن هذه الملحمة ذاتها لم ينفصل فيها الماضي عن الحاضر وما ستأتي به الأيام. الزمن، الزمن الذي يتوزّع على الساعات، يتلاحم هنا في ساعة كونية، لا يغدو بعدها ليل سيطرة ولا للموت حين ينطلق أبناء وأحفاد القرويين تحت هذه السماء الزرقاء ذاتها بين الوديان وشعاب الجبل." محمد الأسعد، أم الزينات تحت ظلال الخروب.

أُمَرُّ أَصَابِعِي الْآنَ عَلَى نَصْلِ سَنَجَةٍ سَيِّ يَامَنَةِ
أُغْمَضُ عَيْنِي...

نهر التايمز يستعيد اسمه التَّنَّ العَظِيم (Great Stink)

جثث الإمبرياليين تتحلل في قاعه

تنهش خدودها أسماك ذهبية بهيَّة

وأخرى منتفخة تنهذى على صفحة الماء الحمراء

عيونها شاخصة إلى السماء:

دخان أسود جميل يمحو بياض ضباب لندن القبيح

وجرس "بيغ بن" يصارع لبث دَقَّتْهُ المَخْنُوقَةُ الأخيرة

دمدمة طبول أفريقية

وأهازيج الثورة الفلاحية

تبعث الخدر في أثير الزمن الجديد

صداها يتردد في "داونينغ ستريت":

"مندوب خبرٍ دولتك... لندن مرابط خيلنا."

"وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" (سورة الزمر - 69)

هذا ما كتبه سَيِّ يَامَنَةِ بيد حفيدها المشتاق الذي لم تره ولم يرها...

تمَّ في 7 تشرين الأول 2025، القدس المحتلة)

الإحالات

[1] Michael Rose, 17 Inches Of Imperial Steel: Sword Bayonet Pattern 1907 in British Service, Vol. 1: 1907-1914

(Gisborne: Victoria, 2017).

[2] الحرب الروسية اليابانية (8 شباط 1904 - 5 أيلول 1905): بين الإمبراطورية الروسية القيصرية والإمبراطورية اليابانية وكان سببها التنافس على أراضي منشوريا وكوريا وانتهت بانتصار اليابان.

[3] Frank Jacob, The Russo-Japanese War and Its Shaping of the Twentieth Century (London: Routledge, 2017), 1.

[4] مصطفى كامل، الشمس المشرقة، ط1 (القاهرة: مطبعة اللواء، 1904)، 4.

[5] Cemil Aydin, "A Global Anti-Western Moment? The Russo-Japanese War, Decolonization, and Asian Modernity" in Competing Visions of World Order: Global Moments and Movements, 1880s–1930s (New York: Palgrave Macmillan, 2007), 219.

[6] Bill Harriman, The Arisaka Rifle (United Kingdom: Bloomsbury Publishing, 2019).

[7] Imperial War Museums, "Japanese Type 30 Bayonet, with Scabbard," object no. WEA 604, accessed 6 October 2025.

<https://www.iwm.org.uk/collections/item/object/30003266>.

[8] حول تحديث الجيش الياباني والصراع مع طبقة الساموراي، انظر :

Edward J. Drea, Japan's Imperial Army: Its Rise and Fall (University Press of Kansas, 2009).

[9] للمزيد حول الحرب 'أريساكا' في الأعمال الفنية اليابانية، انظر :

"Golden Kamuy," Wikipedia contributors, The Free Encyclopedia, Last modified 10 August 2025, accessed 13 October 2025.

https://en.wikipedia.org/wiki/Golden_Kamuy; "Arisaka Rifle", Internet Movie Firearms Database, Last modified 19 August 2025, accessed 13 October 2025.

https://www.imfdb.org/wiki/Arisaka_Rifle.

[10] حول دور المراقبين العسكريين الأوروبيين ودروس الحرب الروسية اليابانية، انظر :

Liam Caswell, *Born Soldiers Who March Under the Rising Sun: The Russo-Japanese War, Britain's Military Observers, and British Impressions Regarding Japanese Martial Capabilities Prior to the First World War* (Halifax, NS: Dalhousie University, 2017).

[11] Patrick Porter, "Military Orientalism? British Observers of the Japanese Way of War, 1904–1910," *War & Society*, Vol. 26, No. 1 (2007): 1-25.

[12] المصدر نفسه.

[13] تعني كلمة بوشيدو في اليابانية "طريق المحارب"، وتشير إلى جملة القوانين والأخلاقيات التي كان يتبعها محارب الساموراي، وتتلخص في النزاهة والشجاعة والتضحية والاهتمام بالآخرين والتعاطف معهم والشعور القوي بالواجب.

[14] حول الحداثة والروح القتالية، انظر:

Alexander M. Nordlund, "A War of Others: British War Correspondents, Orientalist Discourse, and the Russo-Japanese War, 1904–1905," *War in History*, Vol. 22, No. 1 (2014): 28–46. (Original work published 2015).

<https://doi.org/10.11770968344513519595/>.

[15] Shikō, *The Occupation of the Harbor of Port Arthur: At Long Last, after Unremitting Bombardment of the Impregnable Fortress by the Elite of our Army and Navy, the Stronghold Fell* (Tokyo: Naraha Sannosuke, 1904). Woodblock print. Saint Louis Art Museum, St. Louis. Object no. 336:2010a–c, accessed 6 October 2025,

<https://www.slam.org/collection/objects/52565/>.

[16] دشن الهجوم البحري الياباني المفاجئ على ميناء "بورت آرثر" (منشوريا- الصين)، في الثامن من شباط 1904، بداية الحرب الروسية اليابانية، تلاه تحوّل العمليات العسكرية اليابانية منذ شهر آب من ذات العام إلى فرض حصار خانق على الحصن الروسي المنيع، وفي المرحلة النهائية من الحصار هاجم اليابانيون الحصن بموجات من الهجمات الانتحارية بعشرات آلاف الجنود المسلّحين بالحرايب قبل أن تعلن القوات الروسية الاستسلام في أواخر شهر كانون الأول 1904.

[17] لتلخيص ممتاز حول دروس الحرب الروسية اليابانية في الجيوش الأوروبية، انظر:

Yigal Sheffy, "A Model Not to Follow: The European Armies and the Lessons of the War" in *The Impact of the Russo-Japanese War* (London: Routledge, 2006), 273288-.

[18] Yohanan Petrovsky-Shtern, "War and peace of Iosif Trumpeldor: From Zionist Hagiography to Cultural History," *Journal of Israeli History*, Vol. 39, No. 1 (2021): 13-33.

[19] Allison B. Gilmore, *You Can't Fight Tanks with Bayonets: Psychological Warfare against the Japanese Army in the Southwest Pacific* (Lincoln, NE: University of Nebraska Press, 1998).

[20] Herbert A. Friedman, "The United States PSYOP Organization in the Pacific During World War II," *Psywarrior*, 26 January 2005, accessed 6 Oct 2025.

<https://www.psywarrior.com/PSYOPOrgWW2Pac.html>.

[21] Charles Edwin Fripp, *The Battle of Isandlwana*, 22 January 1879. (England, c. 1885). NAM. 1960-11-182-1. National Army Museum, UK, Global Role gallery.

<https://collection.nam.ac.uk/detail.php?acc=1960-11-182-1>.

[22] Karen Jones, *A Cultural History of Firearms in the Age of Empire* (London: Routledge, 2016), 152.

[23] Ibid.

[24] Ibid., 154.

[25] Ian F. W. Beckett, "Indigenous Resistance in the Anglo-Zulu War," *Historical Encounters*, Vol. 10, No. 2 (2023): 12-21.

[26] رمح "الأسيجاي": سلاح القتال الأساسي لقبائل الزولو، وهو عبارة عن عصا خشبية أسطوانية تنتهي بنصل معدني حاد وله نوعان؛ الأول قصير يستخدم للطعن في الالتحام القتالي ويسمى "إكلوا"، وهو الصوت الذي يخرجه الرمح عند نزعته من الجسد المطعون، والثاني طويل يستخدم للرمي عن بعد.

[27] Jones, op. cit., 148.

[28] Eric Schmitt, "U.S. Used Missile With Long Blades to Kill Qaeda Leader in Syria," *The New York Times*, 24 June 2020, Updated 20 July 2021, accessed 6 Oct 2025.

<https://www.nytimes.com/2020/06/24/world/middleeast/syria-qaeda-r9x-hellfire-missile.html>.

[29] "Hellfire R9X Missile: The Mystery Weapon," *Civils Daily*, 3 August 2022, accessed 6 October 2025.

<https://www.civildaily.com/news/hellfire-r9x-missile-the-mystery-weapon/>.

[30] "Jerusalem Won at Bayonet's Point; British Would Not Reply to Artillery Fire for Fear of Damaging the City. American Colony Saved," *The New York Times*, 18 December 1917, Times-Machine, accessed 7 October 2025.

<https://timesmachine.nytimes.com/timesmachine/1917/12/18/98257183.html?pageNumber=2>.

[31] Paul Hodges, "They Don't Like It Up'em!: Bayonet Fetishization in the British Army During the First World War," *Journal of War & Culture Studies*, Vol. 1, No. 2 (2008): 123-138.

[32] Mike Horswell, *The Rise and Fall of British Crusader Medievalism, c. 1825–1945* (London: Routledge, 2018), 124.

[33] Yigal Sheffy, "Chemical Warfare and the Palestine Campaign, 1916-1918," *The Journal of Military History*, Vol. 73, No. 3 (2009): 803-844.

[34] *Ibid.*, 125.

[35] Michael Brown, "Cold Steel, Weak Flesh: Mechanism, Masculinity and the Anxieties of Late Victorian Empire," *Cultural and Social History*, Vol. 14, No. 2 (2017): 155-181.

[36] Matthew Hughes, "Fieldmarshal Viscount Allenby: One of the Great Captains of History?" in *Palestine and World War I: Grand Strategy, Military Tactics and Culture in War*, ed. Haim Goren, Eran Dolev and Yigal Sheffy (London: Bloomsbury Publishing, 2014).

[37] Brown, *op.cit.*, 155-181.

[38] Justin Fantauzzo and Robert L. Nelson, "A Most Unmanly War: British Military Masculinity in Macedonia, Mesopotamia and Palestine, 1914–18," *Gender & History*, Vol. 28, No. 3 (2016): 587-603.

[39] Jean Bou, "A Cavalry Victory? Cavalry in the Historiography of the Sinai-Palestine Campaign" in *Palestine and World War I: Grand Strategy, Military Tactics and Culture in War*, ed. Haim Goren, Eran Dolev and Yigal Sheffy (London: Bloomsbury Publishing, 2014).

[40] Australian War Memorial, "The 2nd Australian Light Horse Brigade Entering the Village

of Zernukah", (Palestine, 16 January 1918,) Photograph, accessed 7 October 2025.

<https://www.awm.gov.au/collection/B01503>.

[41] Australian War Memorial, "A Jewish family with three soldiers, including Lieutenant Fred Harold Tomlins (far left) taking tea on the verandah " (Palestine, July 1918,) Photograph, accessed 7 October 2025.

<https://www.awm.gov.au/collection/C228397>.

[42] David R. Woodward, *Hell in The Holy Land: World War I in the Middle East* (Lexington: University Press of Kentucky, 2006), 174.

[43] Paul Daley, *Beersheba Centenary Edition: Travels through a Forgotten Australian Victory* [Kindle ed.] (Melbourne University Publishing, 2017), Kindle Locations 3801–3803.

[44] Major C. H. Dudley Ward, *The 74th Yeomanry Division in Syria and France*, foreword by Field-Marshal Viscount Allenby (London: John Murray, 1922; Digital ed. converted and distributed in 2012 by Andrews UK Limited).

[45] Bou, *Cavalry, Firepower, and Swords...*, op.cit., 99-125.

[46] Jean Bou, "Cavalry Combat Mounted Warfare in Palestine" in *The Australian Imperial Force*, Jean Bou, Peter Dennis and Paul Dalglish, eds. (South Melbourne, Victoria: Oxford University Press, 2016).

[47] Edward C. Woodfin, *Camp and Combat on the Sinai and Palestine Front: The Experience of the British Empire Soldier, 1916- 18* (Houndmills, UK: Palgrave Macmillan, 2012), 21.

[48] روعي ماروم، "الحرب العالمية الأولى في سهل سارونة"، في *سهل سارونة وانطلاق معركة مجدو في الحرب العالمية الأولى*، تحرير عران تيروش (القدس: أرائيل للنشر، 2015)، 29-48. [بالعبرية]

[49] روعي ماروم، "الحرب العالمية الأولى في سهل سارونة"، في *سهل سارونة وانطلاق معركة مجدو في الحرب العالمية الأولى*، تحرير عران تيروش (القدس: أرائيل للنشر، 2015)، 29-48. [بالعبرية]

[50] F.S.A. The Marquess of Anglesey, *A History of the British Cavalry: Volume 5: Egypt, Palestine and Syria 1914–1919* (United Kingdom: Leo Cooper, Pen & Sword Books, 1994), 139–140.

[51] Zachary D. Grafman, *The Battle of Beersheba: Strategic and Tactical Pivot of Palestine*

(Virginia: University of Liberty, 2013).

[52] Mesut Uyar, *The Ottoman Army and the First World War* (London: Routledge, 2020), 313.

[53] Australian War Memorial, "Thunder of a light horse charge", 4th Light Horse Brigade at Beersheba on 31st October 1917, (Palestine, February 1918), Photograph, accessed 7 October 2025.

<https://www.awm.gov.au/collection/C595>.

[54] Matt Chun, "Enduring Silence: Anzac Day and the Frontier Wars", *Overland*, 3 May 2018, accessed 7 October 2025.

<https://overland.org.au/201805/enduring-silence-anzac-day-and-the-frontier-wars/>.

[55] Padraic Gibson, "Imperialism, ANZAC Nationalism and the Aboriginal Experience of Warfare," *Cosmopolitan Civil Societies Journal*, Vol. 6, No. 3, (2014).

[56] *Ibid.*

[57] Carolyn Holbrook, *Anzac: The Unauthorised Biography* [Kindle ed.]. (Sydney: New-South, 2014), Kindle Locations 354-356.

[58] Frances Peters-Little, Ann Curthoys, and John Docker (eds.). *Passionate Histories: Myth, Memory and Indigenous Australia* (Canberra: ANU Press, Aboriginal History Monographs, 2010), Vol. 21.

[59] شكري نديم، *حرب فلسطين* (بغداد: شركة النبراس للنشر والتوزيع، 1965)، 105.

[60] Uyar, op. cit., 302.

[61] Edward Harold O'Brien as a private, C Squadron, 3 Light Horse Regiment, 1917-1919, interviewed by Major Douglas Wyatt. Australian War Memorial, (Accession No. S00681).

<https://www.awm.gov.au/collection/C88026>.

[62] Australian War Memorial, "An Australian Soldier With Some Locals Inside The Ruins of an Ancient Building Site. First World War, 1914-1918" (Surafend, Palestine, C. 1918), Photograph, accessed 7 October 2025.

<https://www.awm.gov.au/collection/C248175?image=1>.

[63] Liora R. Halperin, *The Oldest Guard: Forging the Zionist Settler Past* (Redwood City: Stanford University Press, 2021).

[64] Yuval Ben-Bassat, *Petitioning the Sultan: Protests and Justice in Late Ottoman Palestine 1865-1908* (London: I.B.Tauris, 2014), 224.

[65] Simon Anglim, *Orde Wingate and the British Army, 1922-1944* (London: Routledge, 2015), 23.

[66] British Census Office in Palestine, "Report and General Abstracts of the Census of 1922, taken on the 23rd of October, 1922", Compiled by J. B. Barron, Superintendent of the Census (Jerusalem, 1923).

[67] للمزيد انظر: أُرشيف سلطة الآثار الصهيونية: Sarafand el Khrab، ملف رقم: 064480-IL-IAA-ARC

[68] رونين شينغ، **بَرّات مزدوجة** (تل أبيب: 'وزارة الدفاع' قسم النشر، 2021)، 157. [بالعبرية]

[69] للمزيد انظر:

Meron Benvenisti, "Bovaria Babriyya: a Frankish Residue on the Map of Palestine," in *Outremer: Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem*, Presented to Joshua Prawer, Binyamin Ze'ev Keddar, Hans Mayer, Raimund Charles Smail and Joshua Prawer, ed., (Yad Izhak Ben-Zvi Institute, 1982), 130.

[70] Charles Clermont-Ganneau, *Archaeological Researches in Palestine During the Years 1873-1874: With Numerous Illustrations from Drawings Made on the Spot by A. Lecomte Du Noüy*, Vol. 2 (Palestine Exploration Fund, 1896), 124-125.

[71] Amir Gorzalczy, "A Site from the End of the Byzantine and the Early Islamic Periods at Şarafand el-Kharab, Nes Ziyona," *Atiqot/עתיקות*, Vol. 46 (2004): 130-131.

[72] يوسف إبراهيم، مقابلة مصوّرة أجراها ركان محمود، فلسطين في الذاكرة، 3 آب 2008.

<https://www.palestineremembered.com/al-Ramla/Sarafand-al-Kharab/ar/Story12145.html>.

[73] هذه الصورة معنونة بـ"قرية صرفند"، بينما يشير الوصف الكامل إلى أن القرية كانت مسرحاً لعملية قتل

انتقامية في 10 كانون الأول 1918، ما يجزم بكونها لصرفند الخراب تحديداً:

Wynton Herbert French Collection, A Photo of the Village of Surafend, Palestine (Surafend, Palestine, ca. 1918–1919), Wairarapa Archives, Masterton District Library, New Zealand, 06-78/3-19.

[74] **سالمنامة ولاية الشام 1288 هجرية (1871م) 162.**

[75] سعاد العامري ورنّا عناني، **عمارة قرى الكراسي: من تاريخ الإقطاع في ريف فلسطين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر** (رام الله: رواق- مركز المعمار الشعبي، 2003)، 198.

[76] أمين مسعود أبو بكر، **ملكية الأراضي في متصرفية القدس 1858-1918**، ط1 (عمان: مؤسسة عبد الحميد شومان، 1996)، 367.

[77] Ibid., 226.

[78] "Weizmann Sends Warning to British General," CIE, 26 January 1919, accessed 7 October.

<https://israeled.org/weizmann-sends-warning/>.

[79] Terry Kinloch, *Devils on Horses: In the Words of the Anzacs in the Middle East 1916-19* (Exisle Publishing, 2016), 220.

[80] Sahar Huneidi, *A Broken Trust* (London: I.B Tauris, 2001), 32.

[81] Doreen Ingrams, ed., *Palestine Papers, 1917-1922: Seeds of Conflict* (London: Eland Pub Ltd., 2009), 34. (Original work published 1973, New York: G. Braziller)

[82] Ibid., 42.

[83] Ibid.

[84] Ibid., 31.

[85] محفوظات ولاية بافاريا الرئيسية ، BS Palestine 235 جميع حقوق الصور محفوظة مقياس: 1: 12800.

[86] Australian War Memorial, *Panorama of the Village of Wady Hanein with the Light Horse*

Camp in the Background, November 1918, (Accession No. B00445).

[87] يوسف إبراهيم، مصدر سبق ذكره.

[88] محمد حسن إبراهيم، مقابلة مصوّرة أجراها ركان محمود، فلسطين في الذاكرة، 17 أيار 2007.

<https://youtu.be/8buOta4FoE>.

[89] "صرفند الخراب: سبب التسمية،" فلسطين في الذاكرة، 9 تموز 2007، شوهد في 13 تشرين الأول 2025.

<https://www.palestineremembered.com/al-Ramla/Sarafand-al-Kharab/Story2681.html>.

[90] "صرفند الخراب: قصة مذبحه صرفند الخراب يرويها علي محمد ابراهيم (أبو باسم الصرغندي)،" فلسطين في الذاكرة، 27 آب 2009، شوهد في 13 تشرين الأول 2025.

<https://www.palestineremembered.com/al-Ramla/Sarafand-al-Kharab/Story14876.html>.

[91] علي الصرغندي، "محرقة صرفند الخراب،" فلسطين في الذاكرة، 29 آب 2009، شوهد في 13 تشرين الأول 2025.

<https://www.palestineremembered.com/al-Ramla/Sarafand-al-Kharab/Story14899.html>.

[92] بيان نويهض الحوت (إعداد)، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية من أوراق أكرم زعيتر (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1984)، 362.

[93] محمد سرحان عبد الرحيم، مقابلة مصوّرة أجراها فؤاز سلامة، فلسطين في الذاكرة، 28 شباط 2005.

<https://youtu.be/QaB-Q6Coszg?list=PL511KO1JPQyvxcaX1Yp6Ys-0VodBpWj21>.

[94] موسى عنبر الصرغندي، مقابلة مصوّرة أجراها جلال رمانة، 20 كانون الثاني 2023.

<https://www.facebook.com/share/v1/FAZniFXjU/>.

[95] Australian–New Zealand Army (AIF and NZEF), The Kia-ora coo-ee: Official Magazine of the Australian and New Zealand forces in Egypt, Palestine, Salonica & Mesopotamia, No. 3 (Kia-Ora Coo-ee, 15 May 1918), National Library of Australia, Nq 940.394098 KIA.

[96] Noam Chomsky, Pirates and Emperors, Old and New: International Terrorism in the Real World (London: Pluto Books, 2016).

[97] Woodfin, *op.cit.*, 128.

[98] Australian War Memorial, Australian Imperial Force Unit War Diaries, 1914–18 War, AWM4 3/8/29: Egyptian Section, Australian Provost Corps, December 1918 (Accession No. RCDIG1003558).

<https://oatetest.awm.gov.au/collection/C1342136>.

[99] Court of Inquiry into Tpr Lowry's Death, 10/12/1918, NA WA Series 1/3 Box 6 File 1069.

[100] Australian War Memorial, Proceedings of a Court of Inquiry Assembled at Wadi Ha-nein to Enquire into the Part Played by the 2nd Light Horse Brigade in a Raid on Surafend on 10 December 1918, AWM27, 357/11.

[101] Paul Parker, ed., *From Geraldine to Jericho: John Barker and the Great War* (Wellington: Paul Parker, 2017), 82-83.

[102] Australian War Memorial, Proceedings of a Court of Inquiry..., *op.cit.*

[103] Ted Andrews, "Surafend, The Massacre/ Palestine, 10 December 1918," *Desert Column: Australian Light Horse Studies Centre*, 4 August 2009, accessed 21 October 2025 (Anonymous diarist "Kiwi Tropper", Wellington, 1967).

https://alh-research.tripod.com/Light_Horse/index.blog/1944440/surafend-the-massacre-palestine-10-december-1918-ted-andrews-account/.

[104] National Archive Of Australia: NAA. A981, PERS 237, Personal. A. S. Mulhall The Surafend Incident—December 1918 Correspondence.

[105] "Unofficial History Of The A. I. F," *Smith's Weekly* (Sydney, NSW: 1919 - 1950) 24 June 1933: 16, accessed . 9 Oct 2025.

<http://nla.gov.au/nla.news-article235072211>.

[106] Australian War Memorial, Australian Raiding, Collection Item C226654, (Accession No. RELAWM03768).

[107] Woodfin, *op.cit.*, 141-143.

[108] A. B. Paterson, Happy Dispatches [eBook ed.] (Project Gutenberg Australia, 2021) (Original work published 1935)

<https://gutenberg.net.au/ebooks06s06/0603451h.html>.

[109] Archives New Zealand. "Burning of Surafend Village [1918], Palestine - February 1921 - March 1922" (1921–1922), R3885187.

[110] Bill Gammage, The Broken Years: Australian Soldiers in the Great War (Australian National University Press: 1974), 145.

[111] Alison Wishart, "Good Friday, 1915", Australian War Memorial, 1 April 2015, accessed 8 October 2025.

<https://www.awm.gov.au/articles/blog/good-friday-1915#:~:text=One%20hundred%20years%20ago%2C%20in,Accession%20Number:%20C00525>.

[112] Daley, op. cit., 733-734.

[113] D. John Milnes, Imperial Soldiers? The New Zealand Mounted Rifles Brigade in Sinai and Palestine 1916-191 (MA diss., Dunedin: University of Otago, 1999).

[114] Ibid, 46.

[115] Lorenzo Veracini, The World Turned Inside Out: Settler Colonialism as a Political Idea (London: Verso Books: 2021), 153.

[116] Gammage, op.cit.

[117] حول العلاقة بين مستوطني "رحوفوت" وقيادة "الأنزاك"، انظر: رحيل روجيل، "قيادة الجنرال سير هنري شوفل في مستعمرة رحوفوت في معارك مشارف القدس"، في المؤتمر التاسع لجمعية لإرث الحرب العالمية الأولى في "إسرائيل" 1918، 18-19 تشرين الثاني 2010، تحرير عزرا فيمنتال وآفي ششون (القدس: أرثيل للنشر، 2011). [بالعبرية]

[118] حول أوضاع المستوطنات الصهيونية في الحرب العالمية الأولى، انظر: مردخاي إلياب (تحرير)، حصار وضيق: أرض 'إسرائيل' في الحرب العالمية الأولى (القدس: يد اسحق بن تسفي، 1991). [بالعبرية]

[119] المصدر نفسه، 165.

- [120] Anita Shapira, *Land and Power: The Zionist Resort to Force, 1881-1948* (Stanford University Press: 1999), 93.
- [121] Sonia Fathi El-Nimr, *The Arab Revolt of 1936-1939 in Palestine: A Study Based on Oral Sources* (PhD Diss., University of Exeter, 1990), 144.
- [122] Benny Morris, *Righteous Victims: A History of the Zionist-Arab Conflict, 1881-1998* (London: Vintage ed., 2011), 87-88. (Original work published 1999).
- [123] *Ibid.*, 88.
- [124] Roman Freulich, *Soldiers in Judea: Stories and Vignettes of the Jewish Legion* (Herzl Press, 1965), 162- 165.
- [125] Halperin, *op.cit.*, 10.
- [126] Gideon M. Kressel and Reuven Aharoni, *Egyptian Émigrés in the Levant of the 19th and 20th Centuries* (JCSFA, 2013), 21.
- [127] Freddy Liebreich, *Britain's Naval and Political Reaction to the Illegal Immigration of Jews to Palestine, 1945-1949* (London: Routledge, 2004).
- [128] بلدية نيس تسيونا، 'نيس تسيونا' مدينة في قلب موشافا (نيس تسيونا: بلدية نيس تسيونا، 2005)، 34. [بالعبرية]
- [129] بوغز هوربيتز، رائحة الأرض السائبة: ريشون لتسيون 1882-1922 (ريشون لتسيون: لجنة المزارعين في ريشون لتسيون، 2014)، 229. [بالعبرية]
- [130] Nahum Karlinsky, *California Dreaming: Ideology, Society, and Technology in The Citrus Industry of Palestine, 1890-1939* (New York: SUNY Press, 2012).
- [131] Halperin, *op. cit.*, 76.
- [132] إبراهيم بوليع، الأوائل في الدفاع: قصة 'الهجانة' في قطاع ريشون لتسيون (ريشون لتسيون: منظمة أعضاء 'الهجانة' في ريشون لتسيون، 1990)، 38-39. [بالعبرية]
- [133] Yuval Ben-Bassat and Gur Alroey, "The Zionist-Arab Incident of Zarnuqa 1913: A Chronicle and Several Methodological Remarks," *Middle Eastern Studies*, Vol. 52, No. 5

(2016): 787-803.

[134] Aida Essaid, *Zionism and Land Tenure in Mandate Palestine* (London and NY: Routledge, 2013), 143-144.

[135] Ibid., 170.

[136] آفئر كهانوف، أعلوا نيس تسيونا، من حكايات آفئر كهانوف (نيس تسيونا: آفئر كهانوف، 1998)، 73. [بالعبرية]

[137] المصدر نفسه، 71-70.

[138] المصدر نفسه، 75-74.

[139] المصدر نفسه.

[140] المصدر نفسه.

[141] عادل الزيتاوي، "علي بدر، أحد مجاهدي ثورة 1936، من قرية صرفند"، أرشيف المتحف الفلسطيني الرقمي، مجموعة عادل الزواوي: 0125.01.1116. (د.ت)

https://www.palarchive.org/index.php/Detail/objects/216361/lang/ar_PS_

[142] محمد حسن إبراهيم، مصدر سبق ذكره.

[143] "صرفند الخراب: كمين للمجاهدين، "فلسطين في الذاكرة"، 29 حزيران 2008، شوهد في 13 تشرين الأول 2025.

<https://www.palestineremembered.com/al-Ramla/Sarafand-al-Kharab/Story10235.html>.

[144] كمال زكارنة وجمانة أبو حليمة، شاهد على النكبة: شاهد احتلال، شهادات حية (عمّان: دار أمجد للنشر والتوزيع، 2016)، 70.

[145] C. Guy Powles, *The New Zealanders in Sinai and Palestine*, [Kindle ed.]. (Naval & Military Press, 2015), Kindle Locations 3406-3407.

[146] صحيفة 'بريد اليوم' الصهيونية، "في الصحافة العربية"، السنة 3، العدد 61 (5 كانون الأول 1920)، 2، صحيفة 'بريد اليوم'، أرشيف "المكتبة الوطنية الصهيونية"، شوهدت في 13 تشرين الأول 2025 [بالعبرية]

<https://www.nli.org.il/he/newspapers/dhy/192001/05/12//page/2/?e=-----he-20--1--img->

[txIN%7CtXTI-----1](#)

- [147] المصدر نفسه.
- [148] عاموس دانيلي، ملكة بلا تاج: حكاية عن "الموشافا" والعائلة (القدس: عاموس دانيالي، 2006)، 192.
- [149] Ben-Bassat and Alroey, op. cit., 787-803.
- [150] Halperin, op. cit., 163.
- [151] Oren Kessler, Palestine 1936: The Great Revolt and the Roots of the Middle East Con-
flict (Kindle Locations 3319-3321). Kindle ed. (Rowman and Littlefield, 2023).
- [152] Ibid., 86.
- [153] غسان كنفاني، "ثورة 1936-1939 في فلسطين: خلفيات و تفاصيل و تحليل،" في الدراسات السياسية، المجلد الخامس (قبرص: دار منشورات الرمال، 2015)، 451.
- [154] "Map of Iraq Showing the Oil Concessions of the Anglo Persian Oil Company (A.P.O.C.), the Iraq Petroleum Company (I.P.C.) and British Oil Development Company (B.O.D.) and Proposed Pipe Lines of the I.P.C." [31r] (1/2), British Library: India Office Records and Private Papers, IOR/L/PS/12/2882, f 31, Qatar Digital Library.
- https://www.qdl.qa/archive/81055/vdc_100045288928.0x00003e.
- [155] شلومي شترت، فرق الليل الخاصة (SNS) في التمرد العربي: مميزات الفرق ونظريتها القتالية كما تجلّت في عملياتها العسكرية في كوكب الهوا ودبورية و خبرة لد العوادين (جامعة بار إيلان- رمات غان: رسالة ماجستير، 2012)، 164.
- [156] عزام محمد الشلي، مقابلة مصوّرة أجراها ركان محمود، فلسطين في الذاكرة، 2 شباط 2008.
- <https://www.youtube.com/watch?v=xbLqsTgdPA4&t=1s>.
- [157] شترت، مصدر سبق ذكره، 41.
- [158] عزام محمد الشلي، مصدر سبق ذكره.
- [159] عزام محمد الشلي، المصدر نفسه.

[160] محمد الأشوح، مقابلة مصوّرة أجراها غازي اللحام، فلسطين في الذاكرة، 2 تشرين الأول 2004.

https://www.youtube.com/watch?v=Vcplz2e_ZQ0&t=643s

[161] عزام محمد الشلبي، مصدر سبق ذكره.

[162] **جريدة الاتحاد**، العدد 41/58، 18 تمّوز 1984، 5.

[163] Palestine Post. "Puncturing the I.P.C. Pipe Line Nine Times in Five Nights," Vol. 14, No. 3679 (21 June 1938), 4 Historical Jewish Press, NLI, accessed October 13, 2025.

<https://www.nli.org.il/en/newspapers/pls/193801/21/06//article/47/?srpos=2&e=-----en-20-pls-1--img-txIN%7CxtI-I.P.C+-----1.>

[164] Gilbert Herbert, "Crossroads: Imperial Priorities and Regional Perspectives in the Planning of Haifa, 1918–1939," Planning Perspective, Vol. 4, No. 3 (1989): 313-331.

[165] شترتيت، مصدر سبق ذكره، 43.

[166] Matthew Hughes, Britain's Pacification of Palestine: The British Army, the Colonial State, and the Arab Revolt, 1936–1939 (Cambridge: Cambridge University Press, 2019), 85.

[167] Shapira, op. cit., 251- 252.

[168] Preston Jordan Lim, "The Prickly Thorn: A Re-evaluation of Orde Wingate and the Special Night Squads," Small Wars & Insurgencies, Vol. 29, No.1 (2018): 91-111.

[169] John Bierman and Colin Smith, Fire in the Night: Wingate of Burman, Ethiopia, and Zion (Pan Macmillan, 2012) (New York: Random House, 1999), 109.

[170] Paul Scarlata, "Military & Police Handgun Cartridges of South Africa," Firearms (Shot-gun) News, 1 March 2010, accessed on The Free Library by Farlex 8 October 2025.

<https://www.thefreelibrary.com/Military+%26+police+handgun+cartridges+of+South+Africa.-a0221093742.>

[171] شترتيت، مصدر سبق ذكره، 58.

[172] شلومي شترتيت، أكبر "حرب صغيرة": الصراع العسكري البريطاني ضد الثورة العربية في فلسطين،

1936-1939 (جامعة بار إيلان- رمات غان: رسالة دكتوراة، 2020)، 327. [بالعبرية]

[173] Canadian War Records Office, Infantry Section Leading, 1938 (Ottawa: E. Cloutier, Printer to the King, 1941), 12.

[174] Birman and Smith and , Fire in the Night..., op.cit., 94

[175] Ibid, 91.

[176] Hughes, Britain Pacification of Palestine..., op. cit., 281.

[177] أبراهام عكيفا، **أورد وينغيت: حياته وعمله** (تل أبيب: دار معرخوت، 1993)، 42. [بالعبرية]

[178] Uri Ben-Eliezer, The Making of Israeli Militarism (Indiana University Press, 1998), 26.

[179] The National Archives, MacMichael to MacDonald, 'Draft Commentary on Hussein letter' (6), 22 Sep 1939, TNA WO 32/4562.

[180] Caroline Elkins, "The 'Moral Effect' of Legalized Lawlessness: Violence in Britain's Twentieth-Century Empire," *Historical Reflections/Réflexions Historiques*, Vol. 44, No. 1 (2018): 78-90.

[181] Robert (Rex) King-Clark, *Free for a Blast* (UK: Grenville Books Ltd., 1988), 177.

[182] مصطفى عباسي وأمير غولدشين، "جسر ضيق على مستنقعات الحولة: كامل حسين بين فكي كماشة النضال القومي أيام الانتداب،" *مجلة 'إسرائيل' لدراسة الصهيونية ودولة إسرائيل: تاريخ وثقافة ومجتمع*، العدد 24 (2016): 243-269.

[183] King-Clark, op.cit., 191.

[184] Ibid.

[185] Tom Segev, *One Palestine, Complete: Jews and Arabs Under the British Mandate* [eBook ed.] (London: Hachette UK, 2025; Original work published in 2000 by Metropolitan Books).

[186] King-Clark, op.cit., 191.

[187] Ibid, 198.

[188] Kessler, op. cit., 6073-6075.

[189] غالب عيد يعقوب، مقابلة مصوّرة أجراها عبد المجيد دنديس، **فلسطين في الذاكرة**، 25 حزيران 2004.

<https://www.youtube.com/watch?v=rybsJBFJR1o>.

[190] شريف السيد أحمد، مقابلة مصوّرة أجراها سعيد عجاوي، **فلسطين في الذاكرة**، تموز 2007.

<https://www.youtube.com/watch?v=87mF8LVILN4&t=10960s>.

[191] فادي السلامة ومجدي السعدي، **حطين ريحانة صلاح الدين** (دمشق: صفحات للدراسات والنشر، 2011)، 58.

[192] المصدر نفسه، 56.

[193] شتريت، مصدر سبق ذكره، 87.

[194] Hughes, Britain's Pacification of Palestine..., op. cit., 285.

[195] Matthew Hughes, Terror in Galilee: British-Jewish Collaboration and the Special Night Squads in Palestine during the Arab Revolt, 1938–39, "The Journal of Imperial and Commonwealth History, Vol. 43, No. 4 (2015): 590-610.

[196] يرد كلام الحاجة أم علي في ذات المقابلة المذكورة أعلاه مع السيد شريف سيد أحمد.

[197] https://www.bitmuna.com/?s=%D7%A4%D7%9C%D7%95%D7%92%D7%95%D7%AA+%D7%94%D7%9C%D7%99%D7%9C%D7%94&jig_custom_search=nextgen

[198] Mordechai Bar-On, A Never-ending Conflict: A Guide to Israeli Military History (London: Bloomsbury Publishing, 2004), 33-34.

[199] https://www.bitmuna.com/?s=%D7%A4%D7%9C%D7%95%D7%92%D7%95%D7%AA+%D7%94%D7%9C%D7%99%D7%9C%D7%94&jig_custom_search=nextgen

[200] عاموس كينان، **الطريق إلى عين حارود** (تل أبيب: عام عوفيد، 1984). [بالعبرية]

[201] عاموس كينان، "الطريق إلى عين حارود"، ترجمة أنطوان شلحت، **الكرم**، العدد 13 (1984): 199-260.

المرجعية

بالعربية

- أبو بكر، أمين مسعود. ملكية الأراضي في متصرفية القدس 1858-1918. عمان: عبد الحميد شومان، ط 1، 1996.
- زكارنة، كمال، وجمانة أبو حليمة. شاهد على النكبة: شاهد احتلال، شهادات حية. الأردن: دار أمجد للنشر والتوزيع، 2016.
- الحوت، بيان نويهض (إعداد)، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية من أوراق أكرم زعيتر. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1984.
- السلايمة، فادي ومجدي السعدي. حطين ريحانة صلاح الدين. دمشق: صفحات للدراسات والنشر، 2011.
- العامري، سعاد ورنّا عناني. عمارة قرى الكراسي: من تاريخ الإقطاع في ريف فلسطين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. رام الله: رواق- مركز المعمار الشعبي، 2003.
- كامل، مصطفى. الشمس المشرقة. القاهرة: مطبعة اللواء، ط 1، 1904.
- كنفاني، غسان. "ثورة 1936-1939 في فلسطين: خلفيات وتفاصيل وتحليل"، في الدراسات السياسية، المجلد الخامس. قبرص: دار منشورات الرمال، 2015.
- كينان، عاموس. "الطريق إلى عين حارود"، ترجمة أنطوان شلحت، الكرمل، العدد 13 (1984): 199-260.
- نديم، شكري محمود. حرب فلسطين. بغداد: النبراس للنشر والتوزيع، 1965.

بالعبرية

- إلباف، مردخاي (محرر). حصار وضيق: أرض 'إسرائيل' في الحرب العالمية الأولى. القدس: يد اسحق بن تسفي، 1991.
- بلدية نيس تسيونا، 'نيس تسيونا' مدينة في قلب موشافا. 'نيس تسيونا': بلدية نيس تسيونا، 2005.
- بوليج، إبراهيم. الأوائل في الدفاع: قصة 'الهاجنة' في قطاع ريشون لتسيون. ريشون لتسيون: منظمة أعضاء 'الهاجنة' في ريشون لتسيون، 1990.
- دانييل، عاموس. ملكة بلا تاج: حكاية عن "الموشافا" والعائلة. القدس: عاموس دانيالي، 2006.
- روجيل، رحيل. "قيادة الجنرال سير هنري شوفل في مستعمرة رحوفوت في معارك مشارف القدس"، في المؤتمر التاسع لجمعية إرث الحرب العالمية الأولى في إسرائيل 1918، 18-19 تشرين الثاني 2010، تحرير: عزرا فيمنتال وآفي ششون. القدس: أرئيل للنشر، 2011.
- شترت، شلومي. أكبر "حرب صغيرة": الصراع العسكري البريطاني ضد الثورة العربية في فلسطين، 1936-1939. جامعة بار إيلان- رمات غان: رسالة دكتوراه، 2020.
- شترت، شلومي. فرق الليل الخاصة (SNS) في التمرد العربي: مميزات الفرق ونظريتها القتالية كما تجلت في عملياتها العسكرية في كوكب الهوا ودبورية وخربة لد العوادين. جامعة بار إيلان- رمات غان: رسالة ماجستير، 2012.
- شيفغ، رونين. بزّات مزدوجة. 'تل أبيب': وزارة 'الدفاع'- قسم النشر، 2021.
- عباسي، مصطفى وأمير غولدشين، "جسر ضيق على مستنقعات الحولة: كامل حسين بين فكي كماشة النضال القومي أيام الانتداب"، 'مجلة إسرائيل' لدراسة الصهيونية والدولة: تاريخ وثقافة ومجتمع، العدد 24 (2016): 243-269.
- عكيفا، أبراهام. أورد وينغيت: حياته وأعماله. 'تل أبيب': دار معرخوت، 1993.
- كهانوف، آفر. أعلوا نيس تسيونا، من حكايات آفر كهانوف. 'نيس تسيونا': آفر كهانوف، 1998.
- كينان، عاموس. الطريق إلى عين حارود. 'تل أبيب': عام عوفيد، 1984.
- ماروم، روعي. "الحرب العالمية الأولى في سهل سارونة: ذكريات وإرث"، في سهل سارونة وانطلاق معركة مجدو في الحرب العالمية الأولى، تحرير عران تيروش. القدس: أرئيل للنشر، 2015.
- هوربيتز، بوغر. رائحة الأرض السائبة: ريشون لتسيون 1882-1922. 'ريشون لتسيون': لجنة المزارعين في ريشون لتسيون، 2014.

بالإنجليزية

- Andrews, Ted. "Surafend, The Massacre: Palestine, 10 December 1918," Desert Column: Australian Light Horse Studies Centre , 4 August 2009, accessed 21 October 2025. (Anonymous diarist "Kiwi Tropper", Wellington, 1967).
- Anglim, Simon. Orde Wingate and the British Army, 1922-1944-. London: Routledge, 2015.
- Aydin, Cemil. "A Global Anti-Western Moment? The Russo-Japanese War, Decolonization, and Asian Modernity" in Competing Visions of World Order: Global Moments and Movements, 1880s–1930s. New York: Palgrave Macmillan, 2007.
- Bar-On, Mordechai. A Never-ending Conflict: A Guide to Israeli Military History. Bloomsbury Publishing, 2004.
- Beckett, Ian F. W. "Indigenous Resistance in the Anglo-Zulu War." Historical Encounters, Vol. 10, No. 2 (2023): 1221-.
- Ben-Bassat, Yuval. Petitioning the Sultan: Protests and Justice in Late Ottoman Palestine 1865-1908-. London: I.B.Tauris, 2014.
- Ben-Bassat, Yuval and Gur Alroey. "The Zionist–Arab Incident of Zarnuqa 1913: A Chronicle and Several Methodological Remarks," Middle Eastern Studies, Vol. 52, No. 5 (2016): 787-803-.
- Ben-Eliezer, Uri. The Making of Israeli Militarism. Bloomington: Indiana University Press, 1998.
- Benvenisti, Meron. "Bovaria Babriyya: a Frankish Residue on the Map of Palestine," in Outremer: Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem, ed., Binyamin Ze'ev Kedar, Hans Mayer, Raimund Charles Smail and Joshua Prawer. Yad Izhak Ben-Zvi Institute, 1982.
- Bierman, John and Colin Smith. Fire in the Night: Wingate of Burman, Ethiopia, and Zion. New York: Random House, 1999.
- Bou, Jean. "A Cavalry Victory? Cavalry in the Historiography of the Sinai-Palestine Campaign" in Palestine and World War I: Grand Strategy, Military Tactics and Culture in War, ed. Haim Goren, Eran Dolev and Yigal Sheffy. Bloomsbury Publishing, 2014.
- _____. "Cavalry Combat Mounted Warfare in Palestine" in The Australian Imperial Force, by

Jean Bou, Peter Dennis and Paul Dalgleish. South Melbourne, Victoria: Oxford University Press, 2016.

- Brown, Michael. "Cold Steel, Weak Flesh: Mechanism, Masculinity and the Anxieties of Late Victorian Empire," *Cultural and Social History*, Vol. 14, No. 2 (2017): 155-181.
- Caswell, Liam. *Born Soldiers Who March Under the Rising Sun: The Russo-Japanese War, Britain's Military Observers, and British Impressions Regarding Japanese Martial Capabilities Prior to the First World War*. Halifax: Dalhousie University, 2017.
- Chomsky, Noam. *Pirates and Emperors, Old and New: International Terrorism in the Real World*. London: Pluto Books, 2016.
- Chun, Matt. "Enduring Silence: Anzac Day and the Frontier Wars," *Overland*, 3 May 2018, accessed 7 October 2025.
<https://overland.org.au/201805//enduring-silence-anzac-day-and-the-frontier-wars/>.
- Daley, Paul. *Beersheba Centenary Edition: Travels through a Forgotten Australian Victory*, Kindle ed. Melbourne University Publishing, 2017.
- Drea, Edward J. *Japan's Imperial Army: Its Rise and Fall*. Lawrence: University Press of Kansas, 2009.
- Elkins, Caroline. "The 'Moral Effect' of Legalized Lawlessness: Violence in Britain's Twentieth-Century Empire," *Historical Reflections/Réflexions Historiques*, Vol. 44, No. 1 (2018): 7890-.
- El-Nimr, Sonia Fathi. *The Arab Revolt of 1936-1939 in Palestine: A Study Based on Oral Sources*. Ph.D Diss., University of Exeter, 1990.
- Essaid, Aida. *Zionism and Land Tenure in Mandate Palestine*. London and NY: Routledge, 2013.
- Fantauzzo, Justin and Robert L. Nelson. "A Most Unmanly War: British Military Masculinity in Macedonia, Mesopotamia and Palestine, 1914-18," *Gender & History*, Vol. 28, No. 3 (2016): 587-603.
- Freulich, Roman. *Soldiers in Judea: Stories and Vignettes of the Jewish Legion*. Herzl Press, 1965.
- Gammage, Bill. *The Broken Years: Australian Soldiers in the Great War*. Australian National University Press: 1974.
- Gibson, Padraic. "Imperialism, ANZAC Nationalism and the Aboriginal Experience of Warfare," *Cos-*

mopolitan Civil Societies Journal, Vol. 6, No. 3 (2015)63-82 :.

- Gilmore, Allison B. *You Can't Fight Tanks with Bayonets: Psychological Warfare against the Japanese Army in the Southwest Pacific*. Lincoln, NE: University of Nebraska Press, 1998.
- Gorzalczy, Amir. "A Site from the End of the Byzantine and the Early Islamic Periods at Şarafand el-Kharab, Nes Ziyayona," *Atiqot/עתיקות*, Vol. 46 (2004): 130-131.
- Grafman, Zachary D. *The Battle of Beersheba: Strategic and Tactical Pivot of Palestine*. Virginia: University of Liberty, 2013.
- Halperin, Liora R. *The Oldest Guard: Forging the Zionist Settler Past*. Redwood City: Stanford University Press, 2021.
- Harriman, Bill. *The Arisaka Rifle*. London: Bloomsbury Publishing, 2019.
- Herbert, Gilbert. "Crossroads: Imperial Priorities and Regional Perspectives in the Planning of Haifa, 1918–1939," *Planning Perspective*, Vol. 4, No. 3 (1989): 313331-.
- Hodges, Paul. "They Don't Like It Up'em!: Bayonet Fetishization in the British Army During the First World War," *Journal of War & Culture Studies*, Vol. 1, No. 2 (2008): 123138-.
- Holbrook, Carolyn. *Anzac: The Unauthorised Biography*, Kindle ed. Sydney: NewSouth, 2014.
- Horswell, Mike. *The Rise and Fall of British Crusader Medievalism, c. 1825–1945*. London: Routledge, 2018.
- Hughes, Matthew. *Britain's Pacification of Palestine: The British Army, the Colonial State, and the Arab Revolt, 1936–1939*. Cambridge: Cambridge University Press, 2019.
- Hughes, Matthew. "Terror in Galilee: British-Jewish Collaboration and the Special Night Squads in Palestine during the Arab Revolt, 1938–39," *The Journal of Imperial and Commonwealth History*, Vol. 43, No. 4 (2015): 590610-.
- _____. "Fieldmarshal Viscount Allenby: One of the Great Captains of History?" in *Palestine and World War I: Grand Strategy, Military Tactics and Culture in War*, ed. Haim Goren, Eran Dolev and Yigal Sheffy. London: Bloomsbury Publishing, 2014.
- Huneidi, Sahar. *A Broken Trust*. London: I.B Tauris, 2001.

- Ingrams, Doreen (ed.). *Palestine Papers, 1917-1922: Seeds of Conflict*. London: Eland Pub Ltd., 2009. (Originally published 1973, New York: G. Braziller).
- Jacob, Frank. *The Russo-Japanese War and Its Shaping of the Twentieth Century*. London: Routledge, 2017.
- Jones, Karen. *A Cultural History of Firearms in the Age of Empire*. London: Routledge, 2016.
- Karlinsky, Nahum. *California Dreaming: Ideology, Society, and Technology in The Citrus Industry of Palestine, 1890-1939*. New York: SUNY Press, 2012.
- Kessler, Oren. *Palestine 1936: The Great Revolt and the Roots of the Middle East Conflict* [Kindle ed.] Rowman and Littlefield, 2023.
- King-Clark, Robert (Rex). *Free for a Blast*. UK: Grenville Books Ltd., 1988.
- Kinloch, Terry. *Devils on Horses: In the Words of the Anzacs in the Middle East 1916-19*. Exisle Publishing, 2016.
- Kressel Gideon M. and Reuven Aharoni. *Egyptian Émigrés in the Levant of the 19th and 20th Centuries*. JCSFA, 2013.
- Liebreich, Freddy. *Britain's Naval and Political Reaction to the Illegal Immigration of Jews to Palestine, 1945-1949*. London: Routledge, 2004.
- Lim Preston, Jordan. "The Prickly Thorn: A Re-evaluation of Orde Wingate and the Special Night Squads," *Small Wars & Insurgencies*, Vol. 29, No.1 (2018): 91111-.
- Milnes, D. John. *Imperial Soldiers? The New Zealand Mounted Rifles Brigade in Sinai and Palestine 1916-19*. MA diss., Dunedin: University of Otago, 1999.
- Morris, Benny. *Righteous Victims: A History of the Zionist-Arab Conflict, 1881-1998*. Vintage ed., 2011. (Original work published 1999).
- Nordlund, Alexander M. "A War of Others: British War Correspondents, Orientalist Discourse, and the Russo-Japanese War, 1904–1905," *War in History*, Vol. 22, No. 1 (2014): 28–46. (Original work published 2015).

- Paterson, A. B. Happy Dispatches [eBook ed.] Project Gutenberg Australia, 2021. <https://gutenberg.net.au/ebooks06/0603451h.html> . (Original work published 1935).
- Parker, Paul (ed.). From Geraldine to Jericho: John Barker and the Great War. Wellington, 2017.
- Peters-Little, Frances, Ann Curthoys, and John Docker (eds.). Passionate Histories: Myth, Memory and Indigenous Australia. Aboriginal History Monographs. Canberra: ANU Press 2010, Vol. 21.
- Petrovsky-Shtern, Yohanan. "War and peace of Iosif Trumpeldor: From Zionist Hagiography to Cultural History," *Journal of Israeli History*, Vol. 39, No. 1 (2021): 1333-.
- Porter, Patrick. "Military Orientalism? British Observers of the Japanese Way of War, 1904–1910," *War & Society*, Vol. 26, No. 1 (2007): 125-.
- Powles, C. Guy. The New Zealanders in Sinai and Palestine [Kindle ed.] Naval & Military Press, 2015.
- Rose, Michael. 17 Inches Of Imperial Steel: Sword Bayonet Pattern 1907 in British Service, Vol. 1: 19071914-. Gisborne: Victoria, 2017.
- Segev, Tom. One Palestine, Complete: Jews and Arabs Under the British Mandate, [eBook ed.] London: Hachette UK, 2025. (Originally published in 2000 by Metropolitan Books).
- Shapira, Anita. Land and Power: The Zionist Resort to Force, 18811948-. Stanford University Press: 1999.
- Sheffy, Yigal. "Chemical Warfare and the Palestine Campaign, 19161918-," *The Journal of Military History*, Vol. 73, No. 3 (2009): 803844-.
- Sheffy, Yigal. "A Model Not to Follow: The European Armies and the Lessons of the War" in *The Impact of the Russo-Japanese War*. London: Routledge, 2006.
- Smith, C., and J. Bierman. Fire in the Night: Wingate of Burma, Ethiopia and Zion. Pan Macmillan, 2012.
- The Marquess of Anglesey, F.S.A. A History of the British Cavalry: Volume 5: Egypt, Palestine and Syria 1914–1919. UK: Leo Cooper, Pen & Sword Books, 1994.
- Uyar, Mesut. The Ottoman Army and the First World War. London: Routledge, 2020.

- Veracini, Lorenzo. *The World Turned Inside Out: Settler Colonialism as a Political Idea*. Verso Books: 2021.
- Ward, Major C. H. Dudley. *The 74th Yeomanry Division in Syria and France*, foreword by Field-Marshal Viscount Allenby. London: John Murray, 1922; Digital ed. in 2012 by Andrews UK Limited.
- Woodfin, Edward C. *Camp and Combat on the Sinai and Palestine Front: The Experience of the British Empire Soldier, 1916- 18*. Houndmills, UK: Palgrave Macmillan, 2012.
- Woodward, David R. *Hell in The Holy Land: World War I in the Middle East*. Lexington, Ky: University Press of Kentucky, 2006.

المقابلات

التاريخ الشفوي للنكبة الفلسطينية، فلسطين في الذاكرة

- محمد الأشوح، من مهجّري قرية الحمرا- بيسان. مقابلة أجراها غازي اللحام، فلسطين في الذاكرة، 2 تشرين الأول 2006.

https://www.youtube.com/watch?v=Vcplz2e_ZQ0&t=643s.

- محمد حسن إبراهيم، من مهجّري قرية صرفند الخراب - الرملة. مقابلة أجراها ركان محمود، فلسطين في الذاكرة، 17 أيار 2007.

<https://youtu.be/8buOtta4FoE>.

- محمد سرحان عبد الرحيم، من مهجّري قرية صرفند العمار- الرملة. مقابلة أجراها فؤاز سلامة، فلسطين في الذاكرة، 28 شباط 2005.

<https://youtu.be/QaB-Q6Coszg?list=PL511KO1JPQyvxcX1Yp6Ys-0VodBpWj21>.

- عزام محمد الشلي، من مهجّري قرية دنة- بيسان. مقابلة أجراها ركان محمود، فلسطين في الذاكرة، 2 شباط 2008.

<https://www.youtube.com/watch?v=xbLqsTgdPA4&t=1s>.

- غالب عيد يعقوب، من مهجّري قرية لدّ العوادين- حيفا. مقابلة أجراها عبد المجيد دنديس، فلسطين في الذاكرة، 25 حزيران 2004.

<https://www.youtube.com/watch?v=rybsJBFJR1o>.

- شريف السيد أحمد، من مهجّري قرية قومية- بيسان. مقابلة أجراها سعيد عجاوي، فلسطين في الذاكرة، تموز 2007.

<https://www.youtube.com/watch?v=87mF8LVILN4&t=10960s>.

- يوسف إبراهيم، من مهجّري قرية صرفند الخراب- الرملة. مقابلة مصوّرة أجراها ركان محمود، فلسطين في الذاكرة، 3 آب 2008.

<https://www.palestineremembered.com/al-Ramla/Sarafand-al-Kharab/ar/Story12145.html>.

مقابلة خاصة

- موسى عنبر الصرّفندي، جيل ثان من قرية صرّفند الخراب. مقابلة أجراها جلال رمانة، 20 كانون الثاني 2023. <https://www.facebook.com/share/v/1FAZniFXjU/>.

بالإنجليزية

- O'Brien, Edward Harold, As A Private, C Squadron, 3 Light Horse Regiment, 1917-1919-, interviewed by Major Douglas Wyatt, 1988. Australian War Memorial, (Accession No. S00681). <https://www.awm.gov.au/collection/C88026>.

مصادر أولية وأرشيفية

بالعربية

- الزيتاوي، عادل. "علي بدر، أحد مجاهدي ثورة 1936، من قرية صرفند"، أرشيف المتحف الفلسطيني الرقمي، مجموعة عادل الزواوي: 0125.01.1116. (د.ت)

https://www.palarchive.org/index.php/Detail/objects/216361/lang/ar_PS.

- جريدة الاتحاد. العدد 41/58، 18 تموز 1984، 5.
- سالنامه ولاية الشام. الدفعة الثالثة، 1288 هجرية (1871م)، 162.
- عرضحال من قرية زرنوقة- قضاء الرملة وجملة من القرى المجاورة للصدر الأعظم. يشكو جرائم حراس القبولونيات اليهودية، 16 تموز 1329 هـ/ 29 تموز 1913 م)، من يوفال بن باسات، التماس السلطان: الاحتجاجات والعدالة في فلسطين العثمانية المتأخرة [بالإنجليزية]. لندن: آي بي توريس، 2013، 224 .
- محفوظات ولاية بافاريا الرئيسية، g BS Palestine 235 جميع حقوق الصور محفوظة مقياس: 1: 12800)

بالعبرية

- أرشيف سلطة الآثار الصهيونية، Sarafand el Khrab، ملف رقم: 064480-IL-IAA-ARC
- البريد الصهيوني، طابع بريدي تذكاري لمعركة بئر السبع (إصدار صهيوني- أسترالي مشترك تخليداً لبطولة سلاح الخيالة الأسترالي في معركة بئر السبع عام 1917، أيار 2013)، ر. 16545 (بالعبرية)

<https://services.israelpost.co.il/mall.nsf/prodsbycode/706>.

- صحيفة 'بريد اليوم' الصهيونية، "في الصحافة العربية"، السنة 3، العدد 61، 5 كانون الأول 1920، 2. صحيفة 'بريد اليوم'، أرشيف "المكتبة الوطنية الصهيونية"، شوهدت في 13 تشرين الأول 2025.

<https://www.nli.org.il/he/newspapers/dhy/192001/05/12//page/2/?e=-----he-20--1--img-txIN%7CtXTI-----1>.

بالإنجليزية

- Archives New Zealand. "Burning of Surafend Village [1918], Palestine - February 1921 - March 1922" (1921-1922), R3885187.
- Australian-New Zealand Army (AIF and NZEF). The Kia-ora coo-ee: Official Magazine of the Australian and New Zealand forces in Egypt, Palestine, Salonica & Mesopotamia, No. 3 (Kia-Ora Coo-ee, 15 May 1918), National Library of Australia, Nq 940.394098 KIA.
- Australian War Memorial. Australian Imperial Force Unit War Diaries, 1914-18 War, AWM4 329/8/: Egyptian Section, Australian Provost Corps, December 1918, Accession No. RCDIG1003558.
- Australian War Memorial. Australian Raiding, Collection Item C226654, Accession No. RELAWM03768.
- Australian War Memorial. Panorama of the Village of Wady Hanein with the Light Horse Camp in the Background, November 1918, Accession No. B00445.
- Australian War Memorial. Proceedings of a Court of Inquiry Assembled at Wadi Hanein to Enquire into the Part Played by the 2nd Light Horse Brigade in a Raid on Surafend on 10 December 1918, AWM27, 35711/.
- Australian War Memorial. "A Jewish family with three soldiers, including Lieutenant Fred Harold Tomlins (far left) taking tea on the verandah " (Palestine, July 1918) [Photograph]
- Australian War Memorial. "An Australian Soldier With Some Locals Inside The Ruins of an Ancient Building Site. First World War, 1914-1918-" (Surafend, Palestine, C. 1918). [Photograph]
- Australian War Memorial. "The 2nd Australian Light Horse Brigade Entering the Village of Zernukah" (Palestine, 16 January 1918). [Photograph]
- Australian War Memorial. "Thunder of a light horse charge", 4th Light Horse Brigade at Beersheba on 31st October 1917," (Palestine, February 1918) [Photograph].
- British Census Office in Palestine. "Report and General Abstracts of the Census of 1922, taken on the 23rd of October, 1922", Compiled by J. B. Barron, Superintendent of the Census (Jerusalem, 1923).
- Canadian War Records Office. Infantry Section Leading, 1938 (Ottawa: E. Cloutier, Printer to the King, 1941), 12.

- Clermont-Ganneau, Charles. *Archaeological Researches in Palestine During the Years 1873-1874: With Numerous Illustrations from Drawings Made on the Spot by A. Lecomte Du Noüy*, Vol. 2. Palestine Exploration Fund, 1896.
- "Court of Inquiry into Tpr Lowry's Death", 101918/12/, NA WA Series 13/ Box 6 File 1069.
- Elizabeth Thompson (Lady Butler). *Jerusalem Delivered: Warwick and Worcester Yeomanry at Huj*. (London, May 1919). Watercolor on Canvas. Warwickshire Yeomanry Museum, Military Illustrated, August 1996.
- Fripp, Charles Edwin. *The Battle of Isandlwana, 22 January 1879*. (England, c. 1885). NAM. 1960-1-182-11. National Army Museum, UK, Global Role gallery.
- Imperial War Museums. "Japanese Type 30 Bayonet, with Scabbard," object no. WEA 604.
- "Jerusalem Won at Bayonet's Point; British Would Not Reply to Artillery Fire for Fear of Damaging the City. American Colony Saved," *The New York Times*, 18 December 1917. TimesMachine.
- National Archives of Australia. Personal. A. S. Mulhall The Surafend Incident—December 1918 Correspondence, A981, PERS 237.
- Palestine Post. "Puncturing the I.P.C. Pipe Line Nine Times in Five Nights," vol. 14, no. 3679 (21 June 1938), 4 Historical Jewish Press, NLI.
- Shikō. *The Occupation of the Harbor of Port Arthur: At Long Last, after Unremitting Bombardment of the Impregnable Fortress by the Elite of our Army and Navy, the Stronghold Fell*. (Tokyo: Naraha Sannosuke, 1904). Woodblock print. Saint Louis Art Museum, St. Louis. Object no. 336:2010a-c.
- "The National Archives". MacMichael to MacDonald, 'Draft Commentary on Hussein letter' (6), 22 Sep 1939, TNA WO 324562/.
- "Unofficial History of The A. I. F." *Smith's Weekly* (Sydney, NSW : 1919 - 1950) 24 June 1933: 16.
- "Weizmann Sends Warning to British General," *The Center of Israel education*, 26 January 1919, accessed 7 October 2025. <https://israeled.org/weizmann-sends-warning/>.
- Wynton Herbert French Collection. *A Photo of the Village of Surafend, Palestine*. Surafend, Palestine, ca. 1918–1919. Wairarapa Archives, Masterton District Library, New Zealand. 0619-3/78-.

مواقع إلكترونية

بالعربية

- "صرفند الخراب: كمين للمجاهدين،" فلسطين في الذاكرة، 29 حزيران 2008، شوهد في 13 تشرين الأول 2025.

<https://www.palestineremembered.com/al-Ramla/Sarafand-al-Kharab/Story10235.html>.

- علي الصرندلي، "محرقة صرفند الخراب،" فلسطين في الذاكرة، 29 آب 2009، شوهد في 13 تشرين الأول 2025.

<https://www.palestineremembered.com/al-Ramla/Sarafand-al-Kharab/Story14899.html>.

بالإنجليزية

- "Arisaka Rifle", Internet Movie Firearms Database, Last modified 19 August 2025, accessed 13 October 2025.

https://www.imfdb.org/wiki/Arisaka_Rifle.

- "Golden Kamuy", Wikipedia contributors, The Free Encyclopedia, Last modified 10 August 2025, accessed 13 October 2025.

https://en.wikipedia.org/wiki/Golden_Kamuy.

- "Hellfire R9X Missile: The Mystery Weapon," Civildaily, 3 August 2022, accessed 6 October 2025.

<https://www.civildaily.com/news/hellfire-r9x-missile-the-mystery-weapon/>.

- Friedman, Herbert A. "The United States PSYOP Organization in the Pacific During World War II," Psywarrior, 26 January 2005, accessed 6 Oct 2025.

<https://www.psywarrior.com/PSYOPOrgWW2Pac.html>.

- Scarlata, Paul. "Military & Police Handgun Cartridges of South Africa," Firearms (Shotgun) News, 1

March 2010, accessed on The Free Library by Farlex 8 October 2025.

<https://www.thefreelibrary.com/Military+%26+police+handgun+cartridges+of+South+Africa.-a0221093742>.

- Schmitt, Eric. "U.S. Used Missile With Long Blades to Kill Qaeda Leader in Syria," The New York Times, 24 June 2020, Updated 20 July 2021, accessed 6 Oct 2025.

<https://www.nytimes.com/2020/06/24/world/middleeast/syria-qaeda-r9x-hellfire-missile.html>.

- Wishart, Alison. "Good Friday, 1915," Australian War Memorial, 1 April 2015, accessed 8 October 2025.

<https://www.awm.gov.au/articles/blog/good-friday-1915#:~:text=One%20hundred%20years%20ago%2C%20in,Accession%20Number:%20C00525>.

الخرائط

- "Map of Iraq Showing the Oil Concessions of the Anglo Persian Oil Company (A.P.O.C.), the Iraq Petroleum Company (I.P.C.) and British Oil Development Company (B.O.D.) and Proposed Pipe Lines of the I.P.C." [31r] (12/), British Library: India Office Records and Private Papers, IOR/L/PS/122882/, f 31, Qatar Digital Library.

https://www.qdl.qa/archive/81055/vdc_100045288928.0x00003e.

- سرّيّة المسح الميداني في فيلق المهندسين الملكيين في الجيش البريطاني، 1917-1919. خريطة ميدانية، مع تحديد الباحث لمواقع معارك الحرب العالمية الأولى في قرية بيت حنيننا.

- خريطة عسكرية لمعركة غزة الثالثة، للمؤرخ العسكري العراقي شكري نديم.

- سرّيّة المسح الميداني في فيلق المهندسين الملكيين في الجيش البريطاني (1917-1919)، خريطة ميدانية، مع تحديد الباحث لقرية صرفند الخراب والمستعمرات المحيطة.

- خريطة عسكرية نيوزيلندية لمعركة عيون قارة 14-11-1917.

- خريطة فلسطين، مركز الأبحاث الفلسطيني. بيروت، 1966. مقياس رسم 1:250,000، خطتها ودقّقتها سعيد الصباغ، مع

تحديد الباحث لمسار خط التابلاين من كر كوك إلى حيفا.

- خريطة لمسار خط النفط العراقي من كر كوك إلى حيفا. المكتبة البريطانية: سجلات مكتب الهند والأوراق الخاصة.
- خريطة لمسار خط النفط العراقي من كر كوك إلى حيفا، مكتبة قطر الرقمية، 1933.

هذا الكتاب

هذه سيرة تاريخية فلسطينية الهوى لسنجة سَيَّ يامنة (حربة بريطانية من الحرب العالمية الأولى- طراز 1907) كانت "سَيَّ يامنة" قد اغتنمتها من أحد مواقع معارك الحرب العظمى في قريتنا بيت حنينا-القدس، لتصير بيدها سلاحاً وأداة تستخدمها في حياتها اليومية، أقصَّ فيها التاريخ العسكري والثقافي للحربة بصفتها رمزاً للإمبريالية البريطانية. بدأت بكتابة هذه السيرة من الحرب الروسية اليابانية (1904-1905) التي طُوِّرت الحربة البريطانية (من طراز 1907) نتيجة لدروسها العسكرية والاستشرافية مستنسخة حربة أريساكا اليابانية، وتتبعُ نشوء وتطوُّر المعاني الأيديولوجية للحربة في الثقافة الإمبريالية وفي الحروب الاستعمارية. ومن ثمَّ حملت ما جمعت من شتات هذا التاريخ الكوني للحربة وعدتْ به إلى فلسطين، إلى الحجر الأمومي الريفي الذي تفتَّح وعي فيه وبه لمعرفة نظام الأشياء، أساجل هذه الكونية تأويلاً ونقداً في ثلاث حالات دراسية/ لحظات دموية، هي: سيرة الحربة في معارك الخيالة الكبرى على أرض فلسطين في الحرب العظمى وما حملته الحربة من ترميز خاص في هذه الحرب بصفتها حرباً إمبريالية "مقدسة وفروسية"؛ والحربة سلاحاً للاهوت الذبح الإمبريالي في نشوء نموذج/ فكرة المجزرة الأنجلو-صهيونية في بلادنا فلسطين في دراسة مفصلة لمجزرة صرند الخراب (10-12-1918)؛ وأيديولوجيا الحربة (من طراز 1907) في إرهاب فرق الليل الأنجلو-صهيونية الخاصة التي أسسها وينغيت (1938) لقمع الثورة الفلسطينية الفلاحية الكبرى في لحظة تقاطعها مع السيرة الدموية المدينة للنفت العربي (النفت-المجزرة)، هذه الفرق التي شكَّلت النواة الأولى للجيش الصهيوني وطبعته بطابع المجزرة المستمرة.

هذا الكتاب

هذه سيرة تاريخية فلسطينية الهوى لسنجة سَيَّيَ يامنة (حربة بريطانية من الحرب العالمية الأولى- طراز 1907) كانت "سَيَّيَ يامنة" قد اغتنمتها من أحد مواقع معارك الحرب العظمى في قريتنا بيت حنينا-القدس، لتصير بيدها سلاحاً وأداة تستخدمها في حياتها اليومية، أقصَّ فيها التاريخ العسكري والثقافي للحربة بصفقتها رمزاً للإمبريالية البريطانية. بدأت بكتابة هذه السيرة من الحرب الروسية اليابانية (1904-1905) التي طُورت الحربة البريطانية (من طراز 1907) نتيجة لدروسها العسكرية والاستشرافية مستنسخة حربة أريساكا اليابانية، وتتبعُ نشوء وتطوُّر المعاني الأيديولوجية للحربة في الثقافة الإمبريالية وفي الحروب الاستعمارية. ومن ثمَّ حملت ما جمعت من شتات هذا التاريخ الكوني للحربة وعدتْ به إلى فلسطين، إلى الحجر الأمومي الريفي الذي تفتَّح وعي فيه وبه لمعرفة نظام الأشياء، أساجل هذه الكونية تأويلاً ونقداً في ثلاث حالات دراسية/ لحظات دموية، هي: سيرة الحربة في معارك الخيالة الكبرى على أرض فلسطين في الحرب العظمى وما حملته الحربة من ترميز خاص في هذه الحرب بصفقتها حرباً إمبريالية "مقدسة وفروسية"، والحربة سلاحاً للاهوت الذبح الإمبريالي في نشوء نموذج/ فكرة المجزرة الأنجلو-صهيونية في بلادنا فلسطين في دراسة مفصلة لمجزرة صرفند الخراب (10-12-1918)؛ وأيديولوجيا الحربة (من طراز 1907) في إرهاب فرق الليل الأنجلو-صهيونية الخاصة التي أسسها وينغيت (1938) لقمع الثورة الفلسطينية الفلاحية الكبرى في لحظة تقاطعها مع السيرة الدموية المدينة للنفط العربي (النفط-المجزرة)، هذه الفرق التي شكَّلت النواة الأولى للجيش الصهيوني وطبعته بطابع المجزرة المستمرة.

خالد عودة الله

سنجة سَيَّيَ يامنة: سيرة فلسطينية لحربة الإمبريالية

2



الجنوب

خالد عودة الله

سنجة سَيَّيَ يامنة

سيرة فلسطينية لحربة الإمبريالية

كتاب الجنوب